المبحث الثاني: حياة المؤلف

١- اسمه ونسبه :

هو: الإمام البارع ، الفقيه الأصولي ، المفسر النحوي، المتقن المتفنن، شمس الدين ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زين الدين ، الزُّرَعي ثم الدمشقي ، الحنبلي ، الشهير بابن قيم الجوزية .

نسبة إلى المدرسة التي أنشأها محيي الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي .

٢- ولادته ونشأته :

ولد ابن القيم في السابع من صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة (٦٩١هـ) في قرية زريع ، ويقال لها اليوم : إزرع ، من قرى حوران ، وإزرع اليوم تقع جنوب مدينة دمشق ، وتبعد عنها ما يقارب ستين كيلومتراً ، ولا تزال بهذا الاسم ، وهي ضمن محافظة "درعا" .

ولم يحدد المترجمون مكان ولادته أهي في إزرع ؟ أم في دمشق ؟ لكن المعروف أن بلده الأصلي إزرع ، وقد يكون والده ارتحل به إلى دمشق ليتخذها موطناً له ، أو أن أسرته من قبل ارتحلوا إلى دمشق .

ونشأ إمامنا في أسرة متدينة ، مهتمة بالعلم ، فوالده هو : أبو بكر بن أيوب بن سعد الزُّرَعي الحنبلي ، قال عنه الحافظ ابن كثير: كان رجلاً صالحاً ، متعبداً ، قليل التكلف ، وكان فاضلاً، وقد سمع شيئاً من دلائل النبوة عن الرشيد العامري ، توفي فجأة ليلة الأحد تاسع عشر ذي الحجة سنة ٧٢٣هـ بالمدرسة الجوزية، وكانت جنازته حافلة، وأثنى عليه الناس خيراً رحمه الله ، وهو والد العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية ، صاحب المصنفات الكثيرة ، النافعة الكافية [١] .

وأما أخوه ، فهو زين الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر، ولد سنة ٦٩٣هـ ، وشارك أخاه في أكثر شيوخه ، ومن تلامذته الحافظ ابن رجب، توفي سنة ٧٦٩هـ .

قال عنه الحافظ ابن رجب : سمعت عليه كتاب التوكل لابن أبي الدنيا بسماعه على الشهاب العابر ، وتفرد بالرواية عنه[٢] .

وابن أخيه زين الدين: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عبد الرحمن كان من الأفاضل، وقد اقتنى أكثر مكتبة عمه شمس الدين، توفي سنة ٦٩٩هـ[٣] .

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١١٠/١٤) .

(٢) الدارس في تاريخ المدارس – عبدالقادر النعيمي الدمشقي ، تحقيق : جعفر الحسني (٩١/٢) ، ط/ الأولى ، دار الكتاب الجديدة – ١٤٠١هـ .

(٣) شذرات الذهب (٣٥٨/٦) .

قال الشيخ شهاب الدين بن حجي عنه : (كان رجلاً حسناً ، اقتنى كتباً نفيسة ، وهي كتب عمه شمس الدين محمد ، وكان لا يبخل بعاريتها ، وكان خطيب جامع خليخان ، توفي يوم السبت ، خامس عشر من رجب سنة ٧٩٩هـ)[١] .

ومن أبناء ابن القيم الذين اشتهروا بعلمهم : ولده الأكبر عبد الله شرف الدين المتوفى سنة ٧٥٦هـ ، قال عنه ابن كثير : (الشيخ الشاب الفاضل المحصل عبد الله بن العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي ، كانت لديه علوم جيدة، وذهنه حاضر خارق ، أفتى ودرس ، وأعاد وناظر ، وحج مرات عديدة)[٢] .

وابنه إبراهيم العلامة النحوي ، الفقيه المتقن ، برهان الدين ابن شمس الدين، وكانت ولادته سنة ٧١٩هـ وتوفي سنة ٧٦٧هـ ، درّس بالصدرية ، وله في النحو اليد الطولى إذ شرح ألفية ابن مالك في كتاب سماه : إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك ، وله تصدير بالجامع الأموي ، وخطابة جامع خليخان بالقراونة ... ودفن عند أبيه بباب الصغير ، وحضر جنازته القضاة والأعيان[٣] .

تلك هي أسرة ابن القيم ، أسرة علم وتقى ، نالت من العلم حظّاً وافراً، فخلّد لها ذكراً بين العالمين .

٣- رحلته في طلب العلم :

لا يشير المترجمون له إلى رحلات علمية له إلاّ ما ذكروه عن حجاته الكثيرة التي كان يطيل فيها المكث بمكة مجاوراً بالمسجد الحرام[٤] .

ويبدو أنه كان يقيم في بعض البلدان في طريقه إلى الحجاز ، ونعرف ذلك من كتابه المسمى (الرسالة التبوكية) نسبة إلى مدينة تبوك ، وقد سيّر كتابه هذا من تبوك ثامن المحرم سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة[٥].

وقد زار ابن القيم بيت المقدس في فلسطين ، ويبدو أنه أعطى فيها درساً، وقد أشار إلى ذلك في كتابه " بدائع الفوائد "[٦] عند ذكره لبيت من الشعر يمكن أن ينظم من نفس كلماته أربعون ألفاً وثلاثمائة وعشرون بيتاً ثم قال : " ومثله لي قلته في القدس ثم ذكر البيت

محبٌّ صبورٌ غريبٌ فقيرٌ وحيدٌ ضعيفٌ كتومٌ خَمُول

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس (٢/٩١) .

(٢) البداية والنهاية (١٤/٢٥٣) .

(٣) انظر : الدارس في تاريخ المدارس (٢/٨٩) .

(٤) انظر : شذرات الذهب (٦/١٦٨) .

(٥) انظر : الرسالة التبوكية (ص ٣)، ط/ الثانية ، نشر قصي محب الدين الخطيب .

(٦) انظر : بدائع الفوائد – ابن القيم ، عناية : محمد الفاضلي و أحمد أبو الشباب (٣/٢٦٥) ، ط/ الأولى، المكتبة العصرية – بيروت ١٤٢٢هـ .

كما قام برحلات علمية إلى مصر ، وقد أشار إلى ذلك المقريزي في كتابه السلوك حيث قال : (وقدم القاهرة غير مرة)[1].

و صـرّح بذلك ابن القيم نفسه في كتابه (هداية الحيارى) برحلته إلى القاهرة فقال : (وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرئاسة)[2].

وفي معرض كلامه عن علم الصحابة والتابعين ، ذكر كثرة مؤلّفات أئمة الفقه الأربعة ، ثم قال عن شيخه : (وهذا علّامتهم المتأخّر شيخ الإسلام ابن تيمية جمع بعض أصحابه فتاواه في ثلاثين مجلّداً ورأيتها في الديار المصرية)[3].

وتحدث عن رحلته إلى مصر في كتابه إغاثة اللهفان فقال : (وذاكرتُ مرة بعض رؤساء الطب بمصر)[4].

<u>تأثره بشيخه ابن تيمية :</u>

نشأ ابن القيم رحمه الله في بيت والده قيّم الجوزية ، وفي مدينة دمشق ، التي كانت حاضرة من حواضر العلم آنذاك ، فتلقى العلم منذ الصغر .

وكان عصره خليطاً من المذاهب والأفكار المخالفة للكتاب والسنة فمستقل ومستكثر ولعل ابن القيم قد تأثر بذلك في بداية نشأته العلمية لم يتحرّر سلفيّاً إلا بعد اتصاله بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وقد أعجب ابن القيم بشيخه إعجاباً شديداً ، وتأثر به كثيراً فلازمه باستمرار حتى صار ألمع تلاميذه وأشهرهم واقترن اسمه باسمه ، فحيثما يذكر ابن تيمية يذكر بجانبه تلميذه النجيب ابن القيم ، حتى عدّه بعض العلماء دليلاً على سعة علم ابن تيمية ، ومن هؤلاء العلماء الشيخ التفهني عبد الرحمن بن علي الحنفي المتوفى سنة ٨٣٥هـ الذي قال في معرض مدحه لابن تيمية: (ولو لم يكن من آثاره إلاّ ما اتصف به تلميذه ابن القيم الجوزية من العلم لكفى ذلك دليلاً على ما قلناه)[5].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ عند ثنائه على ابن تيمية : (ولو لم يكن للشيخ تقي الدين إلاّ تلميذه الشيخ شمس الدين صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته)[6].

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك – تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق: محمد مصطفى زيادة (٨٣٤/٢) نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر–مصر ١٩٧٠م.

(٢) هداية الحيارى (ص ٨٧) .

(٣) هداية الحيارى (ص ١٢٧) .

(٤) إغاثة اللهفان: (٢٥/١) .

(٥) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية– مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي،تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف (ص ٨٢) ، ط/ الأولى، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٤هـ.

(٦) المصدر السابق (ص ٧٤) .

وقد برزت بصمات الشيخ جلية على مواقف تلميذه ومؤلفاته فقد التزم خط شيخه في تقرير عقيدة السلف ، والرد على المؤولة والنفاة ، واعترف بفضل شيخه عليه في ذلك ، ومن ذلك ما قاله في قصيدته (النونية)[1] بعد حديثه عن آراء الفلاسفة والمتكلمين

جَرَّبْتُ هَذَا كُلَّهُ وَوَقَعْتُ فِي ... تِلْكَ الشِّبَاكِ وَكُنْتُ ذَا طَيَرَانِ

حَتَّى أَتَاحَ لِيَ الإِلَهُ بِفَضْلِهِ ... مَنْ لَيْسَ تَجْزِيهِ يَدِي وَلِسَانِي

فَتَى أَتَى مِنْ أَرْضِ حَرَّانٍ فَيَا ... أَهْلاً بِمَنْ قَدْ جَاءَ مِنْ حَرَّانِ

أَخَذَتْ يَدَاهُ يَدِي وَسَارَ فَلَمْ يَرِمْ ... حَتَّى أَرَانِي مَطْلَعَ الإِيمَانِ

إن اتفاق ابن القيم مع شيخه على الأصول المنهجيَّة ، جعلتهما يلتقيان في غالب المسائل الفرعيَّة فهما متفقان على ضرورة أخذ الدليل من الكتاب والسنة ووجوب الاستنباط منهما ، وترك التعصب المذهبي لذا فلا عجب إذا رأينا ابن القيم يدافع عن بعض الآراء الفقهية التي قال بها شيخه ابن تيمية ، وبخاصة مسألة طلاق الثلاث التي أوذي بسببها ابن تيمية وسُجن معه ابن القيم لنفس السبب .

إن هذه المحبة والموافقة من ابن القيم لشيخه ، جعلت بعض المترجمين يظنون أن ابن القيم صورة مكرَّرة لشيخه ، حتى أدى الأمر ببعضهم كالكوثري إلى اعتبار ذلك منقصة لابن القيم، إذ يقول: (ويجد القارئ في كتابنا هذا الرد على ابن تيمية كما يجد فيه الرد على ابن القيم باعتبار أن الثاني إنما يردد صدى الأول في أبحاثه كلها دون أن تكون له شخصية خاصة، بل هو ظل الأول في كل آرائه وجمع أهوائه)[2]؛

وهذا بلا شك مرفوض من الكوثري جملةً وتفصيلاً .

وقد ثبت اختلاف ابن القيم مع شيخه في بعض المسائل[3] بل كل ما وافقه عليه لم يكن من باب التقليد الأعمى أبداً ، وإنما كان من باب الاتفاق بينهما على المناهج الأصولية كما أسلفنا .

٤- أخلاقه وعبادته :

كان رحمه الله ذا عبادة ، وزهد وورع ، وشغف بالمحبة والذكر والاستغفار ، وكان يطيل الصلاة ويمد ركوعها وسجودها ، وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله تعالى ، حتى يتعالى النهار ويقول : (هذه غدوتي لو لم أقعدها سقطت قواي)[4]

وكان على خلق عال لطيف المعشر كثير التودد لا يؤذي أحداً ولا يحسده[5].

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية-ابن قيم الجوزية(ص ١٠٦ – ١٠٧) مطبعة التقدم العلمية- مصر ١٣٤٤هـ.

(٢) السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل- علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: محمد زاهد الكوثري (ص ١٩٢) نشر مطبعة السعادة – مصر ١٣٥٦هـ.

(٣) استقصى الشيخ بكر أبو زيد هذه الخلافات من كتب ابن القيم و أرَ الآن ضرورة لذكرها . انظر كتابه "ابن قيم الجوزية " : ص ٩٢ – ٩٧ .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٤٤٨/٢) ، الدرر الكامنة (٢١/٤-٢٢).

(٥) انظر :البداية والنهاية ٢٠٢/١٤ .

وحسبك ما قاله تلميذه ابن كثير – الذي كان من أصحب الناس له وأحب الناس إليه[1] – يصف أخلاقه وعبادته فيقول : (وكان حسن القراءة والخلق ، كثير التودد ، لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه ولا يستعيبه ، ولا يحقد على أحد ... ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدًّا ، ويمد ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله)[2].

ثم يقول عنه : (وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة)[3].

وقال ابن رجب : (وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتألُّهٍ ولَهَجٍ بالذكر وشَغَفٍ بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله ، والانكسار له والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك)[4] . وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر ففتح عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة.

وعن حجاته ومجاوراته وكثرة طوافه يقول ابن رجب عنه : (وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمرًا يتعجب منه)[5] .

٥- شيوخه وتلاميذه :

أ- شيوخه :

١- أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة الحنبلي المتوفى سنة ٦٩٧هـ ويعرف بالشهاب العابر ؛ لأنه كان يعبر الرؤيا[6].

٢- مسند الشام قاضي القضاة أبو الفضل سليمان بن حمزة بن قدامة المقدسي المتوفى سنة ٧٢٥هـ ابن الشيخ أبي عمر صاحب المدرسة الصالحية، سمع منه الحافظ الضياء حتى قال : سمعت من ألف كتاب وجزء ، ولم يزل يقرأ عليه الناس إلى قبل وفاته ، وكان إمامًا محدِّثًا أخذ ابن القيم عنه الحديث[7].

---

(١) انظر : المرجع السابق ١٤/٢٣٤ .

(٢) المرجع السابق ١٤/٢٣٤-٢٣٥ .

(٣) المرجع السابق ١٤/٢٣٥ .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٤٨) .

(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٤٨) .

(٦) انظر: الشذرات: (٥/٤٣٧).

(٧) انظر : الدرر الكامنة: (٢/١٤١).

٣- أبو بكر أحمد بن عبد الدائم بن نعمة ، النابلسي الصالحي المتوفى سنة ٧١٨هـ وقد أخذ عنه الحديث[١].

٤- عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد ، أبو محمد المقدسي ثم الصالحي ، مسند الوقت المتوفى سنة ٧١٩هـ ، وقد أخذ عنه الحديث[٢].

٥- صدر الدين إسماعيل بن يوسف بن مكتوم بن أحمد بن محمد بن سليم السويدي الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٧١٦هـ[٣].

٦- البهاء بن عساكر ، وهو القاسم بن المظفر المتوفى سنة ٧٢٣هـ ، قال عنه في الشذرات: مسند الشام بهاء الدين القاسم بن المظفر بن النجم محمود بن تاج الأمناء عساكر ... أجاز له مشايخ البلاد ، وبلغ معجمه سبع مجلدات ... وكان طبيباً مؤرخاً[٤].

٧- علاء الدين علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن زيد الكندي ويعرف بكاتب ابن وداعة المقرئ المحدث المتوفى سنة ٧١٦هـ[٥].

٨- أبو عبد الله شمس الدين ، محمد بن أبي الفضل ابن بركات البعلبكي أو البعلي، الحنبلي الفقيه المحدث المتقن المتوفى سنة ٧٠٩هـ ، وقد أخذ عنه الفقه والعربية[٦].

٩- أبو الفتح بن أبي الفضل البعلي ، وقد ذكر الصفدي أن ابن القيم قرأ عليه العربية ، فقد قرأ عليه الملخص لأبي البقاء ، ثم قرأ الجرجانية[٧] ، ثم قرأ ألفية ابن مالك وأكثر الكافية الشافية[٨] وبعض التسهيل[٩] .

١٠- زين الدين أيوب بن نعمة بن أحمد بن جعفر النابلسي ثم الدمشقي ، المتوفى سنة ٧٣٠هـ[١٠] .

١١- بدر الدين ، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن حازم بن صخر الكناني الحموي البياني الشافعي الإمام المشهور ، المتوفى سنة ٧٣٣هـ[١١] .

---

(١) انظر : الشذرات: (٦/٤٨).

(٢) انظر : الدرر الكامنة:(٣/٢٨٢) .

(٣) انظر المرجع السابق: (١/٤١٠).

(٤) انظر: الشذرات: (٦/٦١).

(٥) انظر : شذرات الذهب: (٦/٣٩).

(٦) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: (٢/٣٥٦).

(٧) الجرجانية هي كتاب الجمل في النحو ، لعبد القاهر الجرجاني .

(٨) وهذا الكتاب هو الألفية المشهورة ، انظر : البداية والنهاية : (١٣/٢٦٦).

(٩) التسهيل في النحو ، لابن مالك أيضاً . انظر : البداية والنهاية :(١٣/٢٦٦) .

(١٠) انظر : الدرر الكامنة : (١/٤٥٤) .

(١١) انظر : المرجع السابق : (١/٣٦٧) . وانظر البداية والنهاية : (١٤/١٦٣).

١٢- مجــد الدين أبو بكر بن محمد بن قاسم التونسي الشافعي المتوفى سنة ٧١٨هـ قال في الشــذرات : هو شيخ النحاة والبحاثين ... وتخرج به الفضلاء ، وكان ديناً صيناً ذكياً ، توفي فــي ذي القعدة عن اثنتين وثمانين سنة[١] وذكر الصفدي[٢] أن ابن القيم قرأ عليه قطعة من المقرب[٣] كما ذكر الداودي وابن حجر والسيوطي أن ابن القيم قرأ عليه العربية[٤] .

١٣- إسماعيل بن محمد الحراني ، ابن الغراء مجد الدين الحنبلي، شيخ الحنابلة في دمشق ، المتوفى سنة ٧٢٩هـ . وقد أخذ عنه ابن القيم الفرائض والفقه والأصول[٥] .

١٤- شــيخ الإســلام ، تقــي الدين ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني المتوفى سنة ٧٢٨هـ[٦].

وهو أشهر شيوخ ابن القيم وأكثر من لازمه ، وقد سبق الحديث عن تأثره به. قال الصفدي : "قــرأ علــيه قطعة من المحرر تأليف جَدّه[٧] وقرأ عليه قطعة من المحصول[٨] ومن كتاب الإحكــام لســيف الدين الآمدي ، وقرأ عليه قطعة من الأربعين[٩] والمحصّل[١٠] وكثيراً من تصانيفه[١١] .

١٥- شــرف الدين أبو محمد عبد الله بن عبد الحليم بن تيمية ، أخو شيخ الإسلام ابن تيمية، المتوفى سنة ٧٢٧هـ ، أخذ عنه الفقه وذكره في إعلام الموقعين قائلاً عنه: شيخنا[١٢] .

١٦- والده قيم الجوزية أبو بكر بن أيوب : وقد ذكر الصفدي أن ابن القيم أخذ عنه الفرائض، وكان له فيها اليد الطولى .

١٧- شــيخ الشــيوخ صفي الدين محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي ثم الهندي الفقيه الشــافعي الأصــولي المتوفى سنة ٧١٥هـ، نزيل دمشق. ولي مشيخة الشيوخ كان متضلعاً

---

(١) انظر الشذرات : (٦/٤٧).

(٢) انظر: الوافي بالوفيات-صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٢/٢٧١)، ط/ الثانية ،جماعة من المستشرقين- ١٣٩٤هـ.

(٣) المقــرب في الــنحو لابن عصفور النحوي المتوفى سنة ٦٦٣هـ . انظر : أسماء الكتب - عبد اللطيف بن رياضي زاده ، تحقيق: د. محمد التونجي (ص٢٠) مكتبة الخانجي - القاهرة ١٤٠٣هـ .

(٤) انظــر : الــدرر الكامــنة : (٤/٢٢) ، والوافي بالوفيات : (٢/٩٠)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - جلال الدين السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (١/٦٢)، ط/ الأولى ، نشر عيسى البابي الحلبي - مصر ١٣٨٤هـ .

(٥) انظر : الدرر الكامنة : (١/٤٠٣).

(٦) انظر : البداية والنهاية : (١٤/٣٥) .

(٧) المحرر كتاب في الفقه الحنبلي ، تأليف مجد الدين بن عبد السلام بن عبد الله ، ابن تيمية ، جدّ شيخ الإسلام ابن تيمية .

(٨) المحصول من أمهات كتب أصول الفقه ، للرازي .

(٩) الأربعين في أصول الدين ، للرازي .

(١٠) المحصل ، للرازي أيضاً .

(١١) انظر: الوافي بالوفيات : (٢/٢٧١) .

(١٢) انظر : أعلام الموقعين عن رب العالمين - ابن القيم ، تحقيق : محمد الدين عبدالحميد(٤/١١٤) المكتبة العصرية - بيروت .

بالأصليّن ، ومن مصنفاته النهاية في أصول الفقه ، أخذ عنه ابن القيم الأصلين : (أصول الفقه وأصول الدين)[1] .

١٨- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن زكي الدين عبد الرحمن القضاعي ثم الكلبي الدمشقي الشافعي إمام المحدّثين ، المتوفى سنة ٧٤٢هـ[2] ، كان عمدة الحفاظ بدمشق ، سمع الكثير من الرجال ورحل ، وبرع في علوم الحديث .

قد ذكره ابن القيم في كتابه (جلاء الأفهام) حيث قال : وتهذيب الكمال لشيخنا أبي الحجاج المزي[3] .

١٩- شمس الدين أبو عبد الله ، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الحنبلي، المتوفى سنة ٧٦٣هـ[4].

ذكره في شيوخه الشيخ بكر أبو زيد ، وقال : إن ابن القيم كان يراجعه في كثير من مسائله واختياراته [5] .

٢٠- بنت جوهر ، فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي المسندة المحدّثة ، توفيت سنة ٧١١هـ[6] ، وقد ذكر ابن رجب أن ابن القيم سمع منها [7] .

ب- تلاميذه:

١- الإمام الحافظ ، أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٤هـ[8] صاحب التفسير، والتاريخ، وغير ذلك من الكتب النافعة .

وقد صرّح ابن كثير بتلمذته على ابن القيم وحبّه له ، فبعد أن مدحه بعلمه وأخلاقه وعبادته قال : " وكنت من أصحب الناس له وأحبّ الناس إليه"[9].

٢- الإمام الحجّة زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسين بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي البغدادي ثم الدمشقي المشهور بابن رجب الحنبلي ، المتوفى

---

(١) انظر : الدرر الكامنة : (١٣٤/٤) .

(٢) انظر : البداية والنهاية : (١٩١/١٤) ؛ وشذرات الذهب : (١٣٦/٦) .

(٣) انظر : جلاء الأفهام – ابن القيم ، تحقيق : طه يوسف شاهين (ص١٢) دار الطباعة المحمدية – القاهرة .

(٤) انظر : البداية والنهاية : (٢٩٤/١٤) . وانظر : الدرر الكامنة : (٣٠/٥) .

(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، بكر أبو زيد: (ص ١٠٦).

(٦) انظر: الدرر الكامنة: (٣٠١/٣).

(٧) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: (٤٤٨/٢).

(٨) انظر : شذرات الذهب : (٢٠٨/٦) .

(٩) البداية والنهاية : (٢٣٤/١٤) .

سنة ٧٩٥هـ[١] وغير ذلك . وقد صرّح بملازمة ابن القيم أكثر من سنة وسماعه منه بعض تصانيفه[٢].

٣- الإمام الحافظ ، محمد بن أحمد بن عثمان ، الذهبي التركماني الشافعي المتوفى سنة ٧٤٨هـ[٣]

٤- قاضي القضاة تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي السبكي الشافعي ، والمتوفى سنة ٧٥٦هـ ، ترجم له ابن حجر ، وذكر ابن القيم من شيوخه[٤] ، وهو والد العلامة تاج الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية .

٥- الإمام العلامة الناقد شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين أحمد بن عبد الهادي ، المقدسي الحنبلي ، توفي سنة ٧٤٤هـ[٥] .

وقد أشار ابن رجب إلى مشيخة ابن القيم لابن عبد الهادي في قوله : وكان الفضلاء يعظّمونه ويتتلمذون له كابن عبد الهادي وغيره[٦].

٦- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي،المتوفى سنة ٧٦٤هـ صاحب الوافي بالوفيات .

وقد ذكر في كتابه الوافي[٧] عند ترجمته لابن القيم جلوسه إليه واستماعه منه .

٧- محمد بن محمد بن محمد بن الخضر الغزي الشافعي ، المتوفى سنة ٨٠٨هـ[٨] ، قال الشوكاني في ترجمته : دخل دمشق فأخذ بها عن ابن كثير والتقى السبكي وابن القيم وغيرهم[٩] .

٨- شمس الدين أبو عبد الله ، محمد بن عبد القادر ، النابلسي الحنبلي المعروف بالجنة ، المتوفى سنة ٧٩٧هـ[١٠] ، وله مختصر طبقات الحنابلة .

وقال في الشذرات عند ترجمته : صحب ابن قيم الجوزية فقرأ عليه أكثر تصانيفه[١١].

٩- ولده شرف الدين أو جمال الدين عبد الله بن شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥٦هـ ، وكان مفرط الذكاء والحفظ[١٢] .

---

(١) انظر : إنباء الغمر بأنباء العمر – ابن حجر العسقلاني ، تحقيق : د. حسن حبشي (٤٦٠/١) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر ١٤١٨هـ ، والدرر الكامنة : (٤٢٨/٢) .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة : (٤٤٨/٢) .

(٣) انظر : شذرات الذهب : (١٥٣/٦) .

(٤) انظر : الدرر الكامنة : (١٣٤/٢) .

(٥) انظر : البداية والنهاية : (٢١٠/١٤) .

(٦) انظر :ذيل طبقات الحنابلة : (٤٤٩/٢) .

(٧) انظر : الوافي بالوفيات : (٢٧٢/٢) .

(٨) انظر : شذرات الذهب :(٩٧/٧).

(٩) انظر : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع – محمد علي الشوكاني (٢٥٤/٢) ، ط/ الأولى ، مطبعة السعادة – مصر ١٣٤٨هـ .

(١٠) انظر : شذرات الذهب : (٣٤٩/٦).

(١١) المرجع السابق نفسه .

(١٢) انظر : البداية والنهاية :(٢٥٣/١٤) .

قال ابن حجر في ترجمته : «اشتغل على أبيه وغيره»[1] .

١٠- ولده برهان الدين إبراهيم، العلامة النحوي الفقيه المتقن المتوفى سنة ٧٦٧هـ[2] .

قال عنه في الشذرات : «تفقه بأبيه وشارك في العربية ، وسمع وقرأ وتنبه وأسمعه أبوه بالحجاز»[3] .

٥- ثناء العلماء عليه :

لقد استحق ابن القيم ثناء العلماء وتقديرهم بما كان له من الفضل والعلم، وما رأيت أحداً ترجم له إلاَّ وأثنى عليه .

فمن هؤلاء :

تلميذه الصفدي فقد قال في ترجمته: «... اشتغل كثيراً ، وناظر واجتهد وأكبّ على الطلب ، وصنف ، وصار من الأئمة الكبار ، في علم التفسير والحديث والأصول ، فقهاً ، وكلاماً ، والفروع والعربية ، ولم يخلف الشيخ العلامة تقي الدين ابن تيمية مثله»[4] .

وقال الإمام ابن كثير: «... سمع الحديث ، واشتغل بالعلم ، وبرع في علوم متعددة ، لا سيما علم التفسير والحديث ، والأصلين ، ولما عاد تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشر وسبعمائة ، لازمه إلى أن مات الشيخ ، فأخذ عنه علماً جمّاً ، مع ما سلف له من الاشتغال ، فصار فريداً في بابه، في فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً ، وكثرة الابتهال»[5] .

وقال : «وكنت من أصحب الناس له ، وأحب الناس إليه ، ولا أعرف في زماننا هذا أكثر عبادة منه» .

وقال : «وبالجملة:كان قليل النظير في مجموعه ، وأموره وأحواله ، والغالب عليه الخير ، والأخلاق الصالحة ، سامحه الله ورحمه» .

وقال ابن رجب : «وتفقه في المذهب ، وبرع وأفتى ، ولازم الشيخ تقي الدين، وأخذ عنه ، وتفنن في علوم الإسلام ، وكان عارفاً بالتفسير ، لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، وإليه فيهما المنتهى ، والحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه ، لا يُلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله ، وبالعربية ، وله فيها اليد الطولى ، وتعلم الكلام ، والنحو وغير ذلك ، وكان عالماً

(١) الدرر الكامنة : (٣٩٦/٢) .
(٢) انظر : شذرات الذهب : (٢٠٨/٦) .
(٣) المرجع السابع نفسه .
(٤) الوافي بالوفيات (٢٧١/٢).
(٥) البداية والنهاية (٢٠٢/١٤).

بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف ، وإشاراتهم ، ودقائقهم ، وله في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى[1] .

وقـال :"وكـان رحمه الله ذا عبادة وتهجد ... لم أشاهد مثله في ذلك ، ولا رأيت أوسع منه علمـا ، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنّة وحقائق الإيمان منه وليس هو المعصوم ، ولكن لم أر في معناه مثله .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ... وكان جريء الجنان ، واسع العلم ، عارفاً بالخلاف ومذاهـب السـلف ، وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله ، بل ينتصر له في جميع ذلك وهو الذي هذّب كتبه ونشر علمه[2] .

٦- مؤلفاته :

لم يستطع من ترجموا له حتى معاصروه ضبط كتبه لكثرتها ، و يسرد له تلميذه ابن رجب – مثلاً – أربعة وأربعين كتاباً[3].

واهتم كثير من المترجمين لابن القيم في سرد كتبه ، وهم ما بين مقل ومكثر ولعل الشيخ بكر أبـو زيـد كان أكثر المهتمين بسردها مع بيان من ذكرها من المترجمين ، ومكان إشارة ابن القـيم لهـا في كتبه ، مع أنه ذكر له كتباً يبدو أنها بقيت في نية ابن القيم ، وقد سرد له ستة وتسعين كتاباً[4] . وقد قسمت هذه المؤلفات حسب الموضوعات الآتية :

أ- في علوم القرآن :

١- التفسير : المعروف أن ابن القيم لم يكتب تفسيراً متكاملاً، وإن كان قد تمنى ذلك، وكتب ابن القيم حوت في ثناياها تفسيراً لآيات كثيرة من القرآن الكريم ، وقد قام الشيخ يسري السيد محمـد بجمـع مـا قاله ابن القيم في التفسير في كتاب ماتع رتّبه على سور القرآن في ستة مجلدات كبار ، وسماه بدائع التفسير ، طبع دار ابن الجوزي بالدمام[5] .

٢- أصول التفسير : وأشار إليه ابن القيم في كتابه جلاء الأفهام[6] .

٣- التبيان في أقسام القرآن : ذكره ابن عماد في الشذرات[7] ، وهو كتاب مطبوع متداول .

٥- رفع التنـزيل : ذكره البغدادي في هدية العارفين[8] ، وحاجي خليفة في كشف الظنون[9].

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٤٨) .

(٢) الدرر الكامنة (٤/٢١) .

(٣) انظر : ذيل طبقات الحنابلة : (٢/٤٤٩-٤٥٠).

(٤) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١١١- ١٩٧) .

(٥) انظر: بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم – يسري السيد محمد (١/١٦) ط/الأولى ، دار ابن الجوزي – الدمام ١٤١٤هـ .

(٦) انظر : جلاء الأفهام : (ص٨٣).

(٧) انظر : شذرات الذهب :(٦/١٧٠) .

(٨) انظر : هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين- إسماعيل باشا البغدادي (٢/١٥٨) مكتبة المثنى -بغداد.

(٩) انظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون – مصطفى أفندي الشهير بكاتب جلبي (١/٨٩) مكتبة المثنى – بغداد .

٦- شــرح أســماء الكتاب العزيز : ذكره بهذا الاسم ابن رجب[١] والداودي[٢] وابن العماد[٣] وذكــره الصــفدي[٤] باسم " تفسير أسماء القرآن الكريم" كما ذكره البغدادي[٥] باسم " أسماء القرآن الكريم " .

٧- المهذب في القراءات : ذكره البغدادي[٦] وحاجي خليفة[٧] .

ب- في السنة الشريفة:

١- تهذيــب مختصر سنن أبي داود : والمختصر للحافظ المنذري ، وهذا الكتاب في تهذيب المختصــر وإيضــاح مشــكلاته ، والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة ، وهو مطبوع متداول مع "معالم السنن" للخطابي، و"مختصر المنذري" في ثمانية مجلدات .

٢- الجــامع بين السنن والآثار : ذكره ابن القيم في "بدائع الفوائد" فقال: "وقد ذكرت في الكتاب الجامع بين السنن والآثار مَنْ قال بذلك من السلف"[٨] .

٣- فوائد في الكلام على حديث الغمامة وحديث الغزالة والضب ، وهو مطبوع .

٤- المنار المنيف في الصحيح والضعيف : وقد قام الشيخ عبد الفتاح أبو غدة بتحقيقه بطبعة جيدة صدرت منها الطبعة الأولى سنة ١٣٩٠هـ ، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ثم طبع حديثاً بتحقيق العلامة عبد الرحمن المعلّمي اليماني ، نشر .

٥- الوابــل الصــيب ورافــع الكلم الطيب أو الكلم الطيب والعمل الصالح: هو كتاب حوى مــأثورات الأدعــية والأذكار الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد طبع أكثر من مــرة[٩] .

ج- في العقيدة :

١- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية : كتاب مطبوع ، طبع في الهند سنة ١٣١٤هـ ، ثم طبع أكثر من مرة .

---

(١) انظر : الذيل على طبقات الحنابلة : (٤٥٠/٢) .

(٢) انظر : طبقات المفسرين- شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي، تحقيق: علي محمد عمر(٩٢/٢)، ط/الأولى ،مكتبة وهبة –مصر ١٣٩٢هـ .

(٣) انظر : الشذرات : (١٧٠/٦) .

(٤) انظر : الوافي بالوفيات : (٢٧٢/٢) .

(٥) انظر : هدية العارفين : (١٥٨/٢) .

(٦) المرجع السابق نفسه .

(٧) انظر : كشف الظنون : (١٩١٤/٢) .

(٨) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٤٥) .

(٩) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٨٦) .

٢- اقتضاء الذكر بحصول الخير ودفع الشر : ذكره الصفدي[١].

٣- الأمالي المكية أو التحفة المكية في بيان الملة الإبراهيمية : وهو يذكر أحياناً باسم الأمالي المكية وأحياناً باسم التحفة المكية ، وذكره ابن العماد باسم التحفة المكية[٢].

٤- جــلاء الأفهام في فضل الصلاة على خير الأنام: ويمكن تصنيفه مع كتب الحديث ، وهو مطــبوع متداول ، وأجود طبعاته بتحقيق الشيخ مشهور حسن سلمان ، نشر دار ابن الجوزي بالدمام[٣] .

٥- جوابــات عــابدي الصــلبان ، وأن مــا هم عليه دين الشيطان : وهو نفس كتاب هداية الحــيارى، وهــذا الاسم الجوابات هو الذي ذكره الذين ترجموا لابن القيم[٤] مع أن هداية الحيارى كتاب مشهور ، والاسم من وضع المؤلف في مقدمة الكتاب و هداية الحيارى عبارة عن جوابات لسبع مسائل أوردها المؤلف على لسان أهل الكتاب .

٦- الجواب الشافي لمن سأل عن ثمرة الدعاء إذا كان ما قدر واقع : وقد ذكره الشوكاني في البدر الطالع[٥] ولم يذكره غيره .

٧- الجــواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، أو الداء والدواء ، وقد طبع بالاسمين عدة طبعات .

٨- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، أو صفة الجنة : وهو كتاب مطبوع متداول .

٩- الرسالة الحلبية في الطريقة المحمدية: وهي منظومة ذكرها الداودي والصفدي[٦] .

١٠- الــروح : طبع هذا الكتاب أكثر من مرة ، وذكره معظم المترجمين لابن القيم[٧] وأشار إليه ابن القيم في كتابه جلاء الأفهام[٨] .

١١- الــروح والــنفس : أشار إليه ابن القيم في كتابه الروح، و مفتاح دار السعادة[٩] ، وفي جلاء الأفهام[١٠] .

١٢- شرح أسماء الله الحسنى : ذكره معظم الذين ترجموا له[١١] .

---

(١) انظر : الوافي بالوفيات :(٢٧١/٢).

(٢) انظر : الشذرات : (١٧٠/٦) .

(٣) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٤٦) .

(٤) انظر : الشذرات : (١٦٨/٦) ؛ والذيل (٤٥٠/٢)؛ وطبقات المفسرين : (٩١/٢) .

(٥) انظر : البدر الطالع : (١٤٤/٢) .

(٦) انظر : طبقات المفسرين : (٩١/٢) . وانظر الوافي بالوفيات : (٢٧١/٢) .

(٧) انظر : الشذرات : (١٦٨/٦) ؛ والدرر الكامنة : (٢٣/٤) ؛ والبدر الطالع : (١٤٤/٢) .

(٨) انظر : جلاء الأفهام : (١٨٩) .

(٩) انظر : مفتاح دار السعادة–ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمود حسن ربيع (ص٤٩٦) ط/ الثانية، مكتبةالأزهر– مصر ١٣٥٨هـ.

(١٠) انظر : جلاء الأفهام : (ص١٨٩) .

(١١) انظر : الذيل : (٤٥٠/٢) ؛ والشذرات : (١٧٠/٦) ، وطبقات المفسرين : (٩٣/٢) .

١٣- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل : كتاب مطبوع مشهور ذكره معظم المترجمين ، وذكره بعضهم باسم "القضاء والقدر"[١] ، وهو موضوع هذه الرسالة .

١٤- الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة : ذكره معظم المترجمين ، وأشار إليه ابن القيم في "إغاثة اللهفان"[٢] و"مدارج السالكين"[٣] .

وقد اختصره ابن الموصلي وكلاهما مطبوعان .

١٥- طريقة البصائر إلى حديقة السرائر في نظم الكبائر : ولعله نفس كتاب "الكبائر" الذي ذكره معظم المترجمين[٤].

١٦- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية : وهذا الكتاب هو المنظومة الشهيرة المسماة "القصيدة النونية" طبعت مراراً ، وشرحها عدد من العلماء ، وذكرها معظم المترجمين . ومن أشهر شروحها شرح الألوسي وشرح ابن سعدي والشرح المسمى توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم" ، تأليف أحمد بن إبراهيم بن عيسى الشرقي ، نشر المكتب الإسلامي سنة ١٣٨٢هـ والمنظومة كلها على البحر الكامل .

١٧- المهدي : ذكره صاحب "كشف الظنون"[٥] .

١٨- مولد النبي صلى الله عليه وسلم : ذكره الشوكاني[٦] وصديق القنوجي[٧] .

١٩- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة : كتاب مطبوع متداول ، وذكره معظم المترجمين .

٢٠- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى .

د- في الفقه وأصوله:

١- إعلام الموقعين عن رب العالمين : وهو من أعظم كتبه وأشهرها يقع في أربعة مجلدات ، مطبوع متداول بين طلبة العلم.

٢- الإعلام باتساع طرق الأحكام : أشار إليه ابن القيم في "إغاثة اللهفان"[٨] ولم يذكره مترجموه ، وقد يكون نفس كتاب "أعلام الموقعين".

٣- الاجتهاد والتقليد: أشار إليه المؤلف في "مفتاح دار السعادة"[٩]، وفي "تهذيب السنن"[١٠].

---

(١) انظر : الدرر الكامنة : (٢٣/٤) وانظر البدر الطالع (١٤٤/٢) .
(٢) انظر : إغاثة اللهفان : ٧٥/١.
(٣) انظر : مدارج السالكين / ٣٥٣/٣ .
(٤) انظر : الشذرات : ١٦٨/٦ ؛ والذيل : ٤٥٠/٢ ؛ وهدية العارفين : ١٥٨/٢ ؛ وطبقات المفسرين:٩٣/٢.
(٥) انظر : كشف الظنون : ١٤٦٥/٢ .
(٦) انظر : البدر الطالع : ١٤٤/٢ .
(٧) انظر : التاج المكلل : ص٤١٩ .
(٨) انظر : إغاثة اللهفان : (١٦٠/٢).
(٩) انظر : مفتاح دار السعادة (ص٥٧).
(١٠) انظر : مدارج السالكين : (٣٠٨/٣) .

٤- أحكام أهل الذمة : طبع للمرة الأولى سنة ١٣٨١هـ بتحقيق الدكتور صبحي الصالح .

٥- إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان : ويسمى الإغاثة الصغرى ، أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين ، وقد طبع بتحقيق الشيخ محمد جمال الدين القاسمي .

٦- بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنضال[1]: ومسألة المحلل في السباق، وقد ذكر ابن القيم هذا الكتاب في أعلام الموقعين[2].

٧- تحفة المودود في أحكام المولود : كتاب مطبوع متداول ، وأجود طبعاته الطبعة التي حققها الشيخ سليم الهلالي ، نشر دار ابن القيم بالدمام .

٨- التحرير فيما يحل ويحرم من لبس الحرير : ذكره أكثر المترجمين[3] وأشار إليه ابن القيم في زاد المعاد باسم التخيير[4] وباسم التحبير[5] .

٩- التعليق على الأحكام : أشار إليه المؤلف في جلاء الأفهام[6] .

١٠- حرمة السماع : أشار إليه ابن القيم في إغاثة اللهفان فقال : وقد ذكرنا شبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطاني، ونقضناها نقضاً وإبطالاً في كتابنا الكبير في السماع[7].

١١- حكم إغمام هلال رمضان : ذكره ابن رجب[8] والداودي[9] وابن العماد[10].

١٢- حكم تارك الصلاة : كتاب مطبوع ، طبع أكثر من مرة[11] .

١٣- حكم تفضيل بعض الأولاد على بعض في العطية[12] .

١٤- الحامل هل تحيض أم لا[13].

١٥- رفع اليدين في الصلاة : ذكره معظم المترجمين لابن القيم[14] وهو مخطوط توجد منه نسخة في المكتبة السعودية بالرياض نسخت سنة ١٣٣٨هـ رقمها ٦٠٩/٨٢ مخطوطات[15].

---

(١) انظر : كشف الظنون : (١/٢٣٥) .

(٢) انظر : أعلام الموقعين : (٤/٢٢) .

(٣) انظر : الذيل ، لابن رجب : (٢/٤٥٠) ؛ والوافي بالوفيات : (٢/٢٧١)؛ وطبقات المفسرين(٢/٩٣).

(٤) انظر : زاد المعاد في هدي خير العباد- تأليف ابن قيم الجوزية، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط وشعيب الأرناؤوط (٣/٤٤٨) ، ط/ الأولى ، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت ١٣٩٩هـ.

(٥) المرجع السابق : (٤/٧٨) .

(٦) انظر : جلاء الأفهام : (ص٨٥) .

(٧) انظر : إغاثة اللهفان : (١/٤٠٥) .

(٨) انظر : الذيل : (٢/٤٥٠) .

(٩) انظر : طبقات المفسرين : (٢/٩٣).

(١٠) انظر : الشذرات : (٦/١٦٩) .

(١١) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره - بكر أبو زيد : (ص١٥٠).

(١٢) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٥١) .

(١٣) المرجع السابق : (ص ١٤٩) .

(١٤) انظر : الذيل : (٢/١٥٠) ؛ والوافي بالوفيات : ٢/٢٧٢ ؛ وطبقات المفسرين (٢/٩٣).

(١٥) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٥٧) .

١٦- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية : كتاب مطبوع متداول.

١٧- الفروسية الشرعية : أشار إليه ابن القيم في أعلام الموقعين بهذا الاسم[١] وذكره الصفدي باسم الفروسية المحمدية[٢] كما طبع باسم الفروسية بتحقيق الشيخ مشهور حسن سلمان ، طبع دار الصحابة بجدة .

١٨- المســائل الطرابلسية أو الطرابلــسيات : ذكــره ابن رجب[٣] والداوودي[٤] وأشار ابن العماد[٥] إلى أنه ثلاث مجلدات وهو نفس كتاب الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

١٩- نكاح المحرم : ذكره معظم المترجمين له[٦] .

هـ- في النحو واللغة

١- بدائــع الفوائــد : كتاب مطبوع في أربعة مجلدات ، وهو كتاب بديع كما سماه صاحب كشف الظنون[٧].

معاني الأدوات والحروف : ذكره معظم المترجمين له[٨] .

و- الزهد والرقائق

١- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان : كتاب مطبوع متداول .

٢- تحفة النازلين بجوار ربّ العالمين : أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين[٩].

٣- روضة المحبين ونزهة المشتاقين : كتاب مطبوع متداول.

٤- زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدى خير الأنبياء : ذكره معظم المترجمين[١٠] .

٥- المــورد الصافي والظل الوافي : أشار إليه ابن القيم في طريق الهجرتين ، وقال : وقد ذكــرنا مجموع هذه الطرق في كتابنا الكبير في المحبة الذي سميناه : المورد الصافي والظل الوافي[١١] .

٦- نور المؤمن وحياته : ذكره ابن رجب[١٢] وابن العماد[١٣] والبغدادي[١٤].

---

(١) انظر : أعلام الموقعين : (٢١/٤) .

(٢) انظر : الوافي بالوفيات : (٢٧٢/٢) .

(٣) انظر : ذيل طبقات الحنابلة : (٤٥٠/٢) .

(٤) انظر : طبقات المفسرين : (٩٢/٢) .

(٥) انظر : شذرات الذهب : (١٦٩/٦) .

(٦) انظر : ذيل طبقات الحنابلة : (٤٥٠/٢) ؛ وانظر شذرات الذهب : (١٦٩/٦) ؛ وانظر طبقات المفسرين:(١٦٩/٦).

(٧) كشف الظنون : (٢٣٠/١) .

(٨) انظر : الوافي بالوفيــات : (٢٧١/٢) ؛ وطبقات المفسرين : (٩٣/٢) ؛ وبغيــة الوعاة : (٦٣/١) وهدية العارفين : (١٥٨/٢) .

(٩) انظر : مدارج السالكين : (٢٣٠/١) .

(١٠) انظر : طبقات المفسرين (٩٣/٢)، والشذرات (١٦٩/٦) .

(١١) انظر : طريق الهجرتين : (ص١٠٣) .

(١٢) انظر : ذيل طبقات الحنابلة : (٤٥٠/٢) .

(١٣) انظر : الشذرات : (١٦٨/٦) .

(١٤) انظر : هدية العارفين : (١٥٩/٢) .

٧- الصبر والسكن : ذكره البغدادي[1] .

٨- طريق الهجرتين : كتاب مطبوع متداول ، أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين[2] باسم " سفر الهجرتين " .

٩- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين : كتاب مطبوع متداول ، وأجود طبعاته الطبعة التي حققها الشيخ سليم الهلالي ، نشر دار ابن الجوزي بالدمام .

١٠- الفتح المكي[3] .

١١- الفتوحات القدسية أو الفتح القدسي : وذكره في مفتاح السعادة باسم الفتوحات القدسية[4].

١٢- الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه : ذكره ابن رجب[5] وابن عماد الحنبلي[6] .

١٣- قرة عيون المحبين وروضة العارفين:أشار إليه ابن القيم في كتابه مدارج السالكين[7].

١٤- مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين : وقد طبع بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي ؛ نشر دار الكتاب العربي ، بيروت .

ز- في موضوعات متفرقة :

١- بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً: ذكره معظم المترجمين لابن القيم[8] وكانت الكيمياء آنذاك نوعاً من الشعوذة لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب .

الطاعون : ذكره ابن العماد وقال : إنه مجلد لطيف[9] .

٢- تفضيل مكة على المدينة : ذكره معظم المترجمين لابن القيم[10].

٣- الرسالة التبوكية : وهي عبارة عن كتاب سيّره ابن القيم من تبوك في الثامن من محرم سنة ٧٣٣هـ طبعت أكثر من مرة وبأكثر من اسم ، فقد طبعتها مطبعة المدني باسم " زاد المهاجر إلى ربه "[11].

---

(١) انظر : هدية العارفين : (٢/١٥٨) .
(٢) انظر : مدارج السالكين :(٢/ ٥٤).
(٣) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٧٥) .
(٤) انظر : مفتاح دار السعادة :(١/١٨٥).
(٥) انظر : الذيل : (٢/٤٥٠).
(٦) انظر : الشذرات : (٦/١٦٨).
(٧) انظر : مدارج السالكين : (٣/١٠٩) .
(٨) انظر : الذيل :(٢/ ٤٥٠)؛ وطبقات المفسرين : (٢/ ٩٣)؛ والشذرات : (٦/ ١٦٩) .
(٩) انظر : الشذرات : (٦/١٦٩) .
(١٠) انظر : الذيل :(٢/٤٥٠) ؛ وطبقات المفسرين : (٢/٩٣) ؛ والشذرات : (٦/١٦٩) .
(١١) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٥٥) .

٤- رسـالة ابن القيم إلى أحد إخوانه : بضع صفحات صغيرة لازالت مخطوطة في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة رقم ٨/٣٢١[١] .

٥- فضل العلم وأهله : ذكره المؤلف في مفتاح دار السعادة[٢] .

٦- الفوائد : وهو كتاب ضم مجموعة من الفوائد عن العقيدة ومعظمها في الرقائق، وقد طبع مراراً .

ح- كتب منسوبة لابن القيم :

١- أخبار النساء : سنة ١٣١٩هـ ، وأغلب الظن أن الكتاب لابن الجوزي ، ولم ينسبه أحد من المؤرخين لابن القيم .

٢- المطالب السنية في قمع المراسم البدعية : وهذه مخطوطة في المكتبة الظاهرية تنسب لابن القيم ، مع أن مؤلفها ينقل عن جماعة من المتأخرين ، ومنهم السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ، وقد ولد بعد وفاة ابن القيم بحوالي قرن من الزمان[٣].

ط- كتب تمنى ابن القيم تأليفها :

ولم يذكرها أحد من المترجمين له ، ولم تنشر حتى الآن . ومن هذه الكتب:

١- تفسير كامل القرآن الكريم : وقد ذكرنا أن ابن القيم تمنى ذلك[٤] .

٢- فضائل النبي صلى الله عليه وسلم: وقد وعد بتأليفه في كتابه "جلاء الأفهام"[٥] .

٣- فضل الجهاد وأهله : وقد وعد بتأليفه في كتابه "طريق الهجرتين"[٦] .

٤- فضل العسل على السكر : وعد بتأليفه في كتابه " مفتاح دار السعادة"[٧] .

٥- محاسن الشريعة[٨] .

---

(١) انظر : : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٥٥) .

(٢) انظر : مفتاح دار السعادة : (ص٣٠٧) .

(٣) انظر : : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٨٩) .

(٤) انظر : : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٤٢) .

(٥) انظر : جلاء الأفهام : (ص١٦٠) .

(٦) انظر : طريق الهجرتين : (ص٦٣٢) .

(٧) انظر : مفتاح دار السعادة : (ص٢٦٩) .

(٨) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٨٧) .

٧- التعريف بكتاب (شفاء العليل) وتحقيق نسبته إليه

(أ) اسم الكتاب :

كتاب شفاء العليل يعد من أهم الكتب التي تناولت مواضيع مهمة وخطيرة في باب العقيدة مثل: موضـــوع القضـــاء والقدر ، وموضوع الحكمة والتعليل ، وموضوع وجود الشر ، وتناولتها بشكل موضوعي وتحليلي ، بحيث جعل ابن القيم كتابه هذا دراسة مقارنة ، بين عقيدة أهل السـنة والجماعـة وعقـائد المذاهب الأخرى كالقدرية ، والمعتزلة ، والجبرية ، والأشاعرة وغيرهم .

وهـذا الكتاب بحق مثال رائع يجب الاحتذاء بحذوه والأخذ به وبالمنهج الذي سار عليه،وهو مـن الكتـب القلـيلة الرائعة التي عالجت الموضوع معالجة موضوعية بعيدة عن التعصب والتنطع ، بل اعتمدت على الأمانة في النقل ودقة الملاحظة وإقامة الدليل والحجة على الرأي الحق.

والكـتاب يمثّل أنموذج لمجهود عالم من علماء السلف في الدفاع عن العقيدة وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة ، وفي رسم متميز في بابه للمنهج السلفيّ عامّة، وخاصّة في معالجة مواضيع الحكمة والقدر فرحمه الله ابن القيم رحمة واسعة.

وقد سمى ابن القيم كتابه بهذا الاسم ونص عليه في مقدمة كتابه ، حيث قال :

(وسميته شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، وجعلته أبوابا)[١].

(ب) تحقيق نسبته إلى مؤلفه :

كتاب شفاء العليل من تأليف ابن القيم – رحمه الله – ولا شك في نسبته إليه، ومما يقطع بذلك مايلي :

١ – أن نسخ شفاء العليل المخطوطة والمطبوعة تنسب الكتاب إليه ، وتصدّره باسمه ، والكتاب في مقدمته يشير إلى ذلك ، ويشير إلى اسم الكتاب أيضاً .

٢ – أن معظـم مـن ترجم لابن القيم وذكر كتبه ذكر من ضمنها كتاب شفاء العليل ، وجميع الكتـب والدراسـات القديمـة والحديثة التي ذكرت هذا الكتاب نسبته لابن القيم ، ولم أقف شخصيّا ، ولم يقف غيري، على أحد نسبه لغيره أو شكك في نسبته إليه .

٣ – أن المؤلف ذكر هذا الكتاب في بعض كتبه الأخرى ، مثل قوله في كتابه "إغاثة اللهفان" بعد حديثه عن مسألة الإرادة الكونية والشرعية : (وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر)[٢].

---

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/ ٢٠) .

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٩٢).

وفعلاً قد أشبع ابن القيم الكلام في هذا الموضوع في كتابه "شفاء العليل"، حيث خصّص له باباً كاملاً هو الباب التاسع والعشرون، وهو تحت اسم : (في انقسام القضاء والحكم والإرادة والكتابة والأمر إلى كونيٍّ متعلِّقٍ بخلقه وإلى ديني متعلّق بأمره ، وما في تحقيق ذلك من إزالة اللبس والإشكال)[1].

كما ناقشها رحمه الله في مواضع كثيرة من كتابه .

٤- أن المؤلف ذكر في كتابه "شفاء العليل" بعضاً من كتبه ، مثل : كتاب مفتاح السعادة ، حيث قال عند حديثه عن التحسين والتقبيح العقليين : (وقد بينا بطلانه من أكثر من خمسين وجهاً في كتاب المفتاح)[2].

كما أشار المؤلف لكتابه " الصواعق المرسلة" حيث قال عند حديثه عن خطر التحريف والتأويل: (وسنفرد إن شاء الله كتاباً نذكر فيه جناية المتأوّلين على الدنيا والدين)[3].

٥- ويتضح أن كتاب شفاء العليل لابن القيم من أسلوبه ، فأسلوب ابن القيم مميز، وأسلوب الكتاب يتطابق كلياً مع أسلوب ابن القيم في سائر كتبه الأخرى .

٦- العادة في كتب ابن القيم أنه يكثر النقل عن شيخه ابن تيمية ويصرح بذلك ، وفي كتاب "شفاء العليل" يفعل نفس الشيء ، فكثيراً ما يقول : قال شيخ الإسلام ، قال شيخنا أبو العباس بن تيمية ، قال شيخنا إلخ ، وهذا كثير في كتابه "شفاء العليل".

(ج) سبب تأليف الكتاب :

بيّن ابن القيم في مقدمة كتابه سبب التأليف ، وهو أنّ أكثر الناس قد تخبط في هذا الموضوع، ولم يهتدوا إلى معرفة الحق فيه بسبب مناهجهم ، يقول :

(وقد سلك الناس في هذا الباب في كل وادٍ ، وأخذوا في كل طريق ، وتولّجوا كل مضيق ، وركبوا كل صعب وذلول ، فلا أحد إلا وهو يحدث نفسه بهذا الشأن ، ويطلب الوصول فيه إلى حقيقة العرفان ، فتراه إما متردداً فيه مع نفسه ، أو مُناظراً لبني جنسه ، وكل قد أختار لنفسه قولاً لا يعتقد الصواب في سواه ، ولا يرتضى إلا إياه ، وكلُّهم إلا من تمسك بالوحي ، عن طريق الصواب مردود ، وباب الهدى في وجهه مسدود ، قدم آراء من أحسن به الظن على الوحي المنزل المشروع ، والنص المرفوع ،حيران يأتم بكل حيران)[4] .

ثم بعدما بيّن حال هؤلاء ، أخذ يبيّن المنهج السليم في القدر ، قال :

(١) شفاء العليل ، تحقيق: العجلان (٥٩٣/٢) .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٢٦/٢) .

(٣) العليل ، تحقيق : الصمعاني (٤٤٢/١) .

(٤) العليل ، تحقيق : الصمعاني (٩/١-١٠) .

(ولما كان الكلام في هذا الباب نفياً وإثباتاً مداره على الخبر عن أسماء الله وصفاته وأفعاله وخلقه وأمره ، كان أسعد الناس بالصواب فيه من تلقى ذلك عن مشكاة الوحي المبين ، ورغب بعقله وفطرته وإيمانه عن آراء المتهوّكين)[1].

ثم بعد ذلك يصرّح بالسبب الذي من أجله ألف كتابه "شفاء العليل" :

(ولما كانت معرفة الصواب في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل واقعة في مرتبة الحاجة ، بل في مرتبة الضرورة ، اجتهدت في جمع هذا الكتاب وتهذيبه وتحريره وتقريبه ، فجاء فرداً في معناه ، بديعاً في مغزاه ، وسميته شفاء العليل)[2].

إذن ، فابن القيم قد ألّف كتابه هذا بسبب الحاجة الماسة لوجود كتاب يعالج هذه القضية التي هي من أصول الإيمان ، وبمنهج قرآني ، وعلى هدي نبوي ، بخلاف الكتب المنتشرة في زمانه والتي كانت تتناول هذه القضية بمناهجها الكلامية الفلسفية بعيداً عن هداية الوحي وتعاليم الشرع ، وهنا يأتي كتاب "شفاء العليل" تلبية ملحّة لهذه الحاجة الماسة ويكون به سد هذا الفراغ الكبير والله أعلم .

---

(١) العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/١١) .

(٢) العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢٠) .

الباب الأول

سمات ومنهج ابن القيم في كتابه (شفاء العليل) ودراسته لقضايا العقيدة

وفيه فصلان :

الفصل الأول : المصطلح والنصوص عند ابن القيم في كتابه .

الفصل الثاني : سمات ومنهج ابن القيم في كتابه وفي قضايا العقيدة .

الفصل الأول

المصطلح والنصوص عند ابن القيم في كتابه

الاصطلاحات

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : المصطلح عند ابن القيم في كتابه .

المبحث الثاني : استنباط ابن القيم الأصول العقدية في مسائل القضاء والقدر من النصوص الشرعية .

المبحث الأول

المصطلح عند ابن القيم في كتابه

مما لا ريب فيه أن الألفاظ والمصطلحات تمثل أهمية بالغة الخطورة في كل فن وعلم ؛ لأن هذه الألفاظ والمصطلحات تمثل مفتاحاً للعلوم والمعارف ؛ فهي أداة للبحث ولغة للفهم ، يتعاطاها العلماء في كل فن وعلم، ففهم أي علم من العلوم مبني على فهم ألفاظه ومصطلحاته ، وفهم تلك الألفاظ جزء من المنهج العلمي ؛ لأن المنهج لا يستقيم إلا إذا قام على مصطلحات دقيقة مفهومة محددة ، تؤدي إلى حقائق علمية صادقة ؛ لأنها تعبر تعبيراً حقيقياً عن العلم الذي تنتمي إليه.

ومما لا شك فيه – أيضاً – أن علم العقيدة يعتبر من أخطر العلوم لأنه أصلها ، وإذا اختل الأصل اختلت الفروع ؛ ولذلك كانت أهمية ألفاظ العقيدة تفوق أي أهمية أخرى ، وأهمية مصطلحات العقيدة تنبع من أهمية علمها وشرفه ، ثم لكثرة ما حصل لألفاظ هذا العلم – أي العقيدة – من تعريف وتبديل ، فنجد كل فرقة تفهم من المصطلحات المعنى الذي يناسبها ويتماشى مع أصولها الفاسدة ، وصارت تلك الألفاظ متضمنة للباطل مع اشتراكها في الألفاظ مع معاني الحق والشرع مما سبب اختلافاً كبيراً ، ولبساً عظيماً .

واللغة – بشكل عام – هي وعاء الفكر بما تحمله ألفاظها من معان ومصطلحات ؛ مما جعل الاصطلاح وسيلة للتحريف والعبث ، وقد كان من أسباب اللبس والتشويش الفكري الذي أحدثه علم الكلام في الأمة الإسلامية ، تلك المفاهيم التي استمدها من الفكر الوافد وحمّلها الألفاظ العربية والشرعية مزاحماً مفاهيمها الأصلية ، مما جعل الناس في حيرة منها والتباس ، مما حتّم الحاجة الماسة لتحديد هذه الألفاظ المتصلة بالعلوم الشرعية خاصّة المجال العقدي ، اتقاء لفتن قد تنجم عن اختلاف المفاهيم[1] .

من هنا نشأ اهتمام العلماء بدراسة الألفاظ والمصطلحات ، فأخذوا يتدارسون الألفاظ دراسة واسعة تحت عنوان "مبحث الألفاظ" وغيره ، معللين هذا بأنهم لن يبحثوا في اللفظ في ذاته بل في اللفظ من حيث صلته بالمعاني ، فأخذوا يدرسون دلالة الألفاظ على المعاني ؛ وأقسام الألفاظ، وخصوصها وعمومها ، ومحكمها ومتشابهها[2] .

وبلغ من اهتمام العلماء بالألفاظ أنهم يقدّمون في كل علم وفن جملة من الاصطلاحات والألفاظ التي يرونها ضرورية ، مُبيّنينَ أنه لا يتم تحقيق العلم والنظر لمن لا يكون مستوفياً لمعاني ما يجري من أهل العلم والنظر في معاني العبارات وحقائقها على التفصيل والتخصيص ، معرفة على التحقيق ، ولذلك شغِلَ العلماء ببيان حدود الألفاظ ومعانيها في كل علم وفن[3] .

ودراسة العلماء للألفاظ بهذه الصورة المهمة إنما هو بسبب ما تحتويه من معانٍ مهمة وخطيرة؛ فالعبارات لا قيمة لها دون المعنى ؛ ولذلك نظر العلماء إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكَلِمُ إخباراً أو أمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً ، وتؤدي في الجملة معنًى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة ، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة ؟

---

[1] انظر : مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر – د. عبدالرحمن بن زيد الزنيدي (ص ٥٠٦ – ٥٠٧) ، ط/ الأولى ، دار إشبيليا – الرياض ، السعودية ١٤١٨هـ .

[2] انظر : مناهج البحث عند مفكري الإسلام – د. علي سامي النشار (ص ٤٥ – ٥٣) ، ط/ الثالثة ، دار النهضة العربية – بيروت ١٤٠٤هـ .

[3] انظر : كتاب الجدل – الفقيه الأصولي ابن عقيل الحنبلي ، تحقيق : د. علي بن عبدالعزيز العميريني (ص ٧٩ – ٨١) ، ط/ الأولى ، مكتبة التوبة – الرياض ، السعودية ١٤١٨هـ.

بـل إن اللفظة تدل على شيء مستقبح في موضع ، وشيء مستحسن في آخر ، ومن هنا جاء البحث في معاني الألفاظ ومدلولاتها تحقيقاً لضبطها وتحديداً لمعانيها[١] .

ومن العلماء العظام الذين اهتموا بدراسة الألفاظ والمصطلحات ابن القيم – رحمه الله – وهذا أمر ظاهر في كتـبه كلّها بشكل عام ، وفي كتابه خاصة "شفاء العليل"، وهذا الاهتمام ليس بمستغرب عليه إذ إنه نشأ في المدرسـة السلفية التي كانت تولي تمحيص الأفكار والألفاظ جُلَّ اهتمامها ، ولا يخفى طول باع شيخه شيخ الإسـلام ابـن تيمـية فـي ذلك ، حيث إن من منهجه بيان مجمل الألفاظ ، مع الاكتفاء في العقيدة بالألفاظ الشـرعية ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه معاني الكتاب والسنة ، كما بيّن لهم ألفاظهما ، ولا شك أن الصحابة – رضوان الله عليهم – عقلوا معاني الشرع ، وفهموه ، وفهموا ألفاظه[٢] .

ولذلـك كـان لابـن القـيم عناية فائقة بضبط دلالة الألفاظ والمصطلحات ، وبيان ما يتعلق بذلك من سوء الاستعمال لأهداف محمودة أو مذمومة ، ولم يكن هذا الاهتمام منه من باب الترف الفكري والعلمي ، أو من أجـل إثـبات التفوق اللغوي والبلاغي ، وإنما كان دفاعاً عن الإسلام ، وبيان حقيقة مراده ، وصدّاً للافتراء على القرآن والسنة بنسبة المعاني الباطلة إلى ألفاظ الشرع .

ومن أسباب عناية ابن القيم بضبط ودراسة الألفاظ والمصطلحات ما يلي :

أولاً : علاقة الألفاظ بالعقيدة والشريعة

تعتبر معرفة اللغة العربية – لفظاً ومعنًى – أساساً في فهم القرآن الكريم والسنة المطهرة ، لأنهما نزلا بلغة العـرب ، ومما لا شك فيه أن اللغة ترتبط بالعقيدة والشريعة ارتباطاً وثيقاً ، إذ كانت اللغة – وستظل – هي وسـيلة الأداء المعـبرة عن الإدراك والفكر والوجدان ، ومن الطبيعي أن يكون العالم في الشريعة عالماً في اللغة وما يتعلق بها ، وليس من المتصور أن يتصدى دارس الشريعة الإسلامية لمعرفتها دون أن يتعمق في لغة هذه الشريعة .

ولذلك حصلت اختلافات بين العلماء في العقيدة والشريعة بسبب اختلافهم في فهم دلالات الألفاظ والمعاني ، ومـن هنا يرتبط الجانب اللفظي ومدلولاته في النصوص الشرعية بفهم القرآن والسنة ، وصحة أو انحراف الجانـب العقدي عند أي طائفة وفرقة ، ولذلك اهتم العلماء – ومنهم ابن القيم – بالألفاظ ومعانيها ومدلولاتها وقواعدها للحفاظ على سلامة نصوص الدين من التحريف والتبديل[٣] .

وكان من أهم أسباب عناية ابن القيم بالألفاظ والمصطلحات ، اللبس والتشويش الذي أصاب بعض النصوص الشرعية بسبب دخول مفاهيم محدثة على يد علماء الكلام ، الذين حمّلوا الألفاظ الشرعية تلك المفاهيم الوافدة ، فحصل عند الناس حيرة والتباس[٤] ، وضاع بسبب المعاني الفاسدة معنى النص الشرعي الصحيح ، وأصبح النص القرآني أو النبوي تابعاً لآراء وأهواء الطوائف .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز – الإمام عبدالقاهر الجرجاني النحوي ، تحقيق : محمود محمد شاكر (ص ٤٣ – ٤٨) ، ط/ الثالثة ، مطبعة المدني – مصر ، ودار المدني – جدة ١٤١٣هـ.

(٢) انظر : المدرسة السلفية وموقف رجالها من المنطق وعلم الكلام – د. محمد عبدالستار أحمد نصار (٦٣٨/١) ، ط/ الأولى ، دار الأنصار – مصر ١٣٩٩هـ .

(٣) انظر : ابن القيم من آثاره العلمية – د. أحمد ماهر البقري (ص ٢٤٧) ، مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية ١٤٠٧هـ .
– الإمام ابن القيم لغوياً مفسراً – د. توفيق محمد شاهين (ص ٢٠) ، ط/ الأولى ، مكتبة وهبة – القاهرة ١٤١٧هـ .

(٤) انظر : مناهج البحث في العقيدة الإسلامية (ص ٥٠٦) .

يقــول ابــن القيم : (وأنت تجد جميع هذه الطوائف تُنزِّل القرآن على مذاهبها وبدعها وآرائها ، فالقرآن عند الجهمــية جهمي ، وعند المعتزلة معتزلي ، وعند القدرية قدري ، وعند الرافضة رافضي ، وكذلك هو عند جميع أهل الباطل ، وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون)[١] .

وابــن القــيم يرى أن الكتاب والسنة بيّنا معنى كل لفظ من الألفاظ الشرعية ، ولا يوجد فيها معنى أو لفظ يهم الــناس فــي دينهم إلا وقد جاء بيانه بأوجز وأوضح عبارة ، وعلى هذا الأساس يتكون منهج ابن القيم تجاه الألفــاظ ، حيث إنه يسلم للنص الشرعي في التعبير عن مضمونه ، وذلك عن طريق العودة باللفظ الشرعي إلــى معناه الأصلي ، وهذا المنهج الذي تقيد به ابن القيم قد تأثر فيه بمنهج المدرسة السلفية التي ترجع إلى النصوص وتجعلها أساساً للألفاظ ولاستنباط العقائد والأحكام[٢] .

ولذا يذهب ابن تيمية إلى أن المعاني الشرعية تؤخذ من ألفاظ التنزيل ، ويلتزم مدلول اللفظ ، ونؤمن به سواء عرفنا معناه أو لم نعرفه[٣] .

يقول ابن تيمية : (طريقة السلف والأئمة أنهم يراعون المعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل ، ويراعون أيضاً الألفاظ الشرعية ، فيعبّرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، ومن تكلم بما فيه معنى باطل يخالف الكتاب والسنة ردوا عليه ، ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقاً وباطلاً نسبوه إلى البدعة)[٤] .

وينــبّه ابــن القــيم على أمر مهم ، وهو أن الألفاظ المجملة هي أساس الضلال الذي أضل الفرق والطوائف الإسلامية .

يقول : (إن هؤلاء المعارضين للكتاب والسنة بعقلياتهم ، التي هي في الحقيقة جهليات ، إنما يبنون أمرهم في ذلــك على أقوال مشتبهة محتملة ، تحتمل معاني متعددة ، ويكون ما فيها من الاشتباه في المعنى ، والإجمال فــي اللفظ يوجب تناولها بحق وباطل ، فبما فيها من الحق يَقْبَل – من لم يحط بها علماً – ما فيها من الباطل لأجــل الاشتباه والالتباس ، ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوصَ الأنبياء ، وهذا منشأ ضلال من ضل من الأمم قبلنا ، وهو منشأ البدع كلها)[٥] .

ولذلــك كــان المنهج السلفي يقوم على موافقة النصوص لفظاً ومعنىً ؛ لأن متابعة الكتاب والسنة في اللفظ والمعنى أكمل وأتم ، وهذا المنهج السلفي يخالف المناهج الأخرى التي توافق النصوص الشرعية في المعنى دون اللفظ ، أو في اللفظ دون المعنى ، أو يخالف الكتاب والسنة لفظاً ومعنى[٦] .

وكــان ابــن القــيم وشــيخه ممــن التزم بما في الكتاب والسنة ، والمأثور عن السلف الصالح من الألفاظ والمصطلحات ؛ لأن الأصل في المصطلحات الشرعية هو الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة الصالحين

---

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٤٤٤ – ٤٤٥) .

(٢) انظر : منهج ابن القيم في التفسير – د. محمد أحمد السنباطي (١١٩ و ١٢٥) ، ط/ الثانية ، دار القلم – الكويت ١٤٠٠هـ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى (٥/٢٩٨) .

(٤) درء تعارض العقل والنقل – ابن تيمية ، تحقيق : د. محمد رشاد سالم (١/٢٥٤) ، ط/ الأولى ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض ١٤٠١هـ .

(٥) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة – ابن القيم ، تحقيق : د. علي بن محمد الدخيل الله (٣/٩٢٥ – ٩٢٦) ، ط/الثالثة ، دار العاصمة – السعودية ١٤١٨هـ .

(٦) انظر : منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة – عثمان بن علي حسن (٢/٦٩٢ – ٦٩٣) ، ط/الثالثة ، مكتبة الرشد – الرياض ١٤١٥هـ ، تعريف الخلف بمنهج السلف – د. إبراهيم بن محمد البريكان (ص ٦١) ، ط/الأولى ، دار ابن الجوزي – السعودية ١٤١٨هـ .

يقـــول ابن تيمية : الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفي على معناها ، إلا أن يتبيّن أنه يوافق الشرع[1] .

وبســـبب حرمان أهل البدع والأهواء من هذا المنهج السلفي ، حرموا الانتفاع من الكتاب والسنة ، يقول ابن القيم :

إن الـــذي حـــال بين هؤلاء وبين استفادتهم اليقين من كلام الله ورسوله أن كثيراً من ألفاظ القرآن والسنة قد صـــار لهـــا معان اصطلح عليها النظار والمتكلمون وغيرهم ، وألف ذلك الاصطلاح ، وجرى عليه النَّشأ ، وصار هو المقصود بالتخاطب وإليه التحاكم ، فصار كثير من الناس لا يعرف سواه ، فلما أرادوا أن يطابقوا بيـــن معانـــي ألفاظ القرآن وبين تلك المعاني التي اصطلحوا عليها أعجزهم ذلك ، فمرة قالوا : ألفاظ القرآن مجاز ، ومرة طلبوا لها وجوه التأويل ، ومرة قالوا : لا تفيد اليقين[2] .

ومـــن هـــنا يتبيّـــن أن الألفاظ لها علاقة متينة بالعقيدة والشريعة الإسلامية ، فالعقيدة والشريعة مستمدة من نصـــوص التـــنزيل ، وهذه النصوص عبارة عن ألفاظ لها معانٍ لا تصح أو تكمل إلا إذا كانت تلك المعاني شرعية كما هي الألفاظ ، وأكثر أسباب ضلال الفرق في نصوص التنزيل ترجع إلى المعاني الفاسدة المنسوبة إلى الألفاظ الشرعية ، أو إلى الألفاظ المبتدعة التي تحوي معانٍ فاسدة وباطلة .

ثانياً : الألفاظ المجملة أصل ضلال الناس

كـــان ابن القيم رحمه الله عند مناقشة كل رأي أو فكرة ، يرى أن أسباب الخلاف بين العلماء والطوائف ترجع في أصلها إلى استعمال الألفاظ المجملة ، والمعاني المبهمة ، واستعمالهم الأدلة التي لا يستدل بها على مـــثل مطلوبهـــم ، فكان أحدهم يستعمل اللفظ بمعنى ، ويستعمله الآخر بمعنى آخر ، فيدب الخلاف ويحتدم الـــنزاع ، ولو فصل ما في اللفظ من إجمال وما في المعنى من إبهام ، لاتفقت الكلمة ، ولما حصل ما حصل من خلاف ونزاع وتراشق بالتكفير والتبديع[3] .

يقول ابن القيم : أصل بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على حق وباطل ، فيطلقها من يريد حقها ، فينكرها من يريد باطلها ، فيرد عليه من يريد حقها ، وهذا باب إذا تأمله الذكي الفطن رأى منه عجائب ، وخلّصه من ورطات تورّط فيها أكثر الطوائف[4] .

بل نجد أن بعض أهل الزيغ والأهواء استغلوا الاختلاف بين السلف والخلف في معاني المصطلحات والألفاظ للخـــداع والتضـــليل ، حيـــث عمدوا إلى ألفاظ الرسل والأنبياء ، وألفاظ القرآن الكريم ، وألفاظ سلف الأمة وعلمائهـــا ، فاستعملوها في معان ودلالات مخالفة لما هي له في الأصل ، وقصدُهُم من استعمال هذه الألفاظ الشرعية إيهامُ الناس أنهم على طريقة ونهج السلف[5] .

---

(1) درء تعارض العقل والنقل (١/٢٤١) .

(2) الصواعق المرسلة (٢/٦٧٢) .

(3) انظر : الإمام ابن تيمية وقضية التأويل – د. محمد السيد الجليند (ص ١٣٨) ، ط/الخامسة ، دار قباء – مصر ٢٠٠٠م .

(4) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٦٠) .

(5) انظر : منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى – د. عبدالله بن رشيد الحوشاني (١/٨٠) ، ط/الأولى ، دار إشبيليا ١٤١٧هـ .

ولذلك نجد المعتزلة – مثلاً – في سياق اهتمامها بالألفاظ التي تستعملها في التعبير عن آرائها فصّلت بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للفظة ، ثم أسهبوا في شرح المعنيين ، ثم اختاروا المعنى الاصطلاحي للفظة لأنه يخدم تصوراتهم الذهنية المذهبية وموقفهم الفكري ولذلك كان أساس اختيارهم للألفاظ ودلالاتها فقامت على منهج التأويل العقلي ، ولعل تمكن المعتزلة من لسان العرب ولغتها ، قد أعانهم على تحريفاتهم وتأويلاتهم العقلية ، وبالتالي تمكنوا من تطويع الألفاظ للتعبير عن مضمون ما يقصدونه وما يعتقدونه ، أي أنهم وضعوا الركائز لمنطلقاتهم الفكرية ثم راحوا يتأولون الألفاظ الشرعية والعربية بحسب ما يخدم هذا المنطلق[1] .

يقول ابن القيم : "أهل الباطل يتعلقون بألفاظ [illegible] على باطلهم لا تدل عليه ، وبمعانٍ متشابهةٍ يشتبه فيها الحق بالباطل فعمدتهم المتشابه من الألفاظ والمعاني"[2] .

فأهل الباطل يخدعون الناس بالألفاظ المجملة المتشابهة التي يعارضون بها نصوص الكتاب والسنة ، وتلك الألفاظ تكون موجودة ومستعملة في الكتاب والسنة وكلام الناس ، لكن بمعان أخر غير المعاني التي قصدوها هم بها ، فيحصل الاشتباه والإجمال ومن هنا – كما يبيّن ابن القيم – تكون الألفاظ المجملة أصل ضلال الناس ، فهي والمعاني المشتبهة ولا سيما إذا صادفت أذهاناً مخبطة وهوى [illegible] صارت من أهم أبواب الانحراف والتضليل والزيغ[3] .

ومن الأمثلة على ذلك : مصطلح "العدل" جعلته المعتزلة اسماً لإنكار قدرة الله على أفعال عباده ، وخلقه لها ، ومشيئته ، فجعلوا إخراجها عن قدرته [illegible] وخلقه هو العدل وسموا أنفسهم بالعدلية ، في مقابل الجبرية الذين جعلوا "العدل" هو الممكن ، فكل ما يمكن فعله بالعبد فهو عندهم عدل ، والظلم هو الممتنع لذاته وحقيقة العدل الذي جاء به الإسلام ليس هو عدل المعتزلة ولا عدل الجبرية ، وإن كان اللفظ واحداً ، بل العدل الذي هو اسم الله وصفته ونعته خارج عن هذا وهذا[4] .

ثالثاً : تمكن وبراعة ابن القيم في اللغة والألفاظ

ومن الأسباب التي جعلت ابن القيم يهتم بالمصطلحات والألفاظ تمكنه من اللغة ، وبراعته في ذلك ، ومن يقرأ كتب ابن القيم يرى كيف كانت معرفته باللغة وبأساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم ، وكيف كانت معرفته الكبيرة بالمعاجم العربية ، وكيف كان يربط ذلك كله ويسخّره لخدمة فهم النصوص الشرعية ، دون تمحل أو تعسف للألفاظ العربية ومدلولاتها الأصلية ، وقد مكنته تلك المعرفة العظيمة باللغة من تمحيص المصطلحات والألفاظ وبيان حقيقة مدلولاتها ، وتفنيد مزاعم الطوائف المنحرفة التي عبثت في مفاهيم المصطلحات ومعانيها حسب أصولها المنحرفة[5] .

---

(1) انظر :

فلسفة القدر في فكر المعتزلة – د. سميح دغيم (ص ٦١ – ٦٢) ، ط/الأولى ، دار الفكر اللبناني – بيروت ١٩٩٢م .

التفسير والمفسرون – د. محمد حسين الذهبي (٣٨٦/١) ، دار الكتب الحديثة – مصر (من دون طبعة أو تاريخ) .

(2) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٥٤٦/٢) .

(3) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٦٠/٢) ، الصواعق المرسلة (٩٢٥/٣ – ٩٢٧) ، درء تعارض العقل والنقل (٢٢٢/١) .

(4) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٤٥٧/٢) ، الصواعق المرسلة (٩٤٩/٣) .

(5) انظر : الإمام ابن القيم لغوياً مفسراً (ص ٦-٧ ، ٢٠) .

ولا شك أن معرفة اللغة العربية هي أساس معرفة وفهم ألفاظ الكتاب والسنة ، ولما كانت اللغة أساسًا في فهم النصوص الشرعية ومعانيها الصحيحة ، كانت اللغة إحدى الأدلة التي كان ابن القيم يستدل بها في بيان مسائل العقيدة وألفاظها ، ويظهر لمن اطلع على كتبه أن المعاجم اللغوية كانت عمدته في تفسير معاني الألفاظ والمصطلحات ، فإذا عرضت له مسألة لها علاقة ببيان الألفاظ لم يتركها حتى يقتلها بحثاً ، وكان لتمكنه من اللغة يوازن بين الأقوال ثم ينتخب ما هو أقرب للصحة والصواب ، ولقوته اللغوية لا يتوانى في تأييد قوله بالحجج والبراهين اللغوية[1] .

ومع تفوق ابن القيم في العلوم الشرعية الفقهية والعقائدية ، نجده متفوقاً – أيضاً – في الأبحاث اللغوية فقد كان على علم بالبلاغة وقواعدها ، والنحو وعلومه ، والبيان وأساليبه ، ومن يقرأ له يعتقد أنه عالم متخصص في ذلك وحسب ، فلغته العربية من السهل الممتنع ، وتمكنه منها ومن مفرداتها وتراكيبها وقواعدها يقطع ببراعته فيها وفي علومها ، فتجد له اليد الطولى ، والباع الواسع في معرفتها وتشقيق القول في أبوابها ، واختيار صائبها ، ونقد زيفها ، وكأنما هو لا يحذق غيرها إذا تحدّث فيها ، أو قد وقف حياته للعناية بها ، والإحاطة بعلومها ، ولا عجب في ذلك فهي لسان الوحي المعتبر ، القرآن والسنة[2] .

ولذلك ليس من الأمر الغريب إذا اهتم ابن القيم بدراسة الألفاظ والمصطلحات فهي من صميم تخصصه واهتمامه ولذلك امتازت دراسته للمصطلحات والألفاظ بالتحليل والعمق ، وذلك عن طريق تحليل الكلمات وإرجاعها إلى مدلولها اللغوي وتصريفها واشتقاقها ، وقد سار في ذلك بدقة وعمق وأصالة على نهج القواعد العلمية في البحث اللغوي ، قائمة على النظرة اللغوية العامّة التي من خلالها يستطيع تحديد معنى اللفظة الواردة في النص ، مع ملاحظة تطور استعمال الكلمة في أصلها ثم التدرج بها إلى المعنويات ؛ مع ربط هذا التدرج بعوامله ، ثم بيان ما دخل على اللفظة من تحريفات في أصل معناها اللغوي ، كل ذلك اهتمام منه رحمه الله - بالمعنى الذي لا يتنافر ومؤدى اللفظ كما يفهمه العرب عند نزول القرآن لنقاء عربيتهم ، وكما يفهمه السلف الصالح الذين شهدوا التنزيل وعاصروه ، فكانوا أعرف وأقرب الناس فهماً لمدلول النص ومعناه[3].

وإذا كانت هذه الأسباب هي بعض دواعي ابن القيم للاهتمام بالألفاظ والمصطلحات والعناية بها ، فإن ذلك الاهتمام الخاص بها شكّل منهجاً متميزاً عند ابن القيم تجاهها ، ويمكن رسم وتوضيح تلك المنهجية التي سلكها في التعامل مع الألفاظ والمصطلحات كما يلي :

* **منهجية ابن القيم تجاه الألفاظ والمصطلحات :**

(١) الاقتصار على الألفاظ الشرعية

(1) انظر : الإمام ابن القيم الجوزية وآراؤه النحوية – أيمن عبدالرزاق الشوّا (ص ١٠٠ – ١٠٣) ، ط/الأولى ، دار البشائر – دمشق ١٤١٦هـ .

(2) انظر :

– ابن القيم اللغوي – د. أحمد ماهر البقري (ص ٥٨ – ٧٠) ، دار المعارف – الإسكندرية (بدون طبعة أو تاريخ) .

– ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف – د. عبدالعظيم عبدالسلام شرف الدين (ص ٨٤ – ٩٠) ، ط/الثانية ، مكتبة الكليات الأزهرية – مصر ١٣٨٧ هـ .

(3) انظر : الإمام ابن القيم لغوياً مفسراً (ص ٢٠) ، ابن القيم اللغوي (ص ٢٣٨) .

إذا كانـــت الألفـــاظ المجملـــة – كما بيّن ابن القيم – هي أصل ضلال أكثر الناس ، فمن الطبيعي أن تقتصر المدرســـة الســـلفية بشكل عام ، وابن القيم بشكل خاص على الألفاظ الشرعية ومدلولاتها الصحيحة ، وذلك إيمانـــاً منها ومن ابن القيم بأن الكتاب والسنة قد بيّنا الألفاظ الشرعية ومعنى كل لفظة منها ، ولا يوجد فيها معنى أو لفظ يهم الناس في دينهم إلا وقد جاء بيانه ولذلك نهج ابن القيم في الألفاظ التي تتعلق بالدين مسلك التوقيف ، أي الاقتصار على الألفاظ الشرعية ، وهذا هو أول أساس سلكه في منهجه تجاه المصطلحات[1].

فالأصـــل فـــي الألفاظ هو الإيمان بما قاله الله ورسوله فكل ما ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاله ، فعليـــنا أن نصـــدّق به ، وإن لم نفهم معناها لأنّا قد علمنا أنه الصادق المصدوق الذي لا يقول على الله إلا الحق ولذلك فجميع الألفاظ الشرعية يؤمن بها ، وذلك خلاف الألفاظ المجملة[2].

يقـــول ابن تيمية : "الألفاظ نوعان : نوع مذكور في كتاب الله وسنة رسوله وكلام أهل الإجماع فهذا يجب اعتـــبار معـــناه ، وتعليق الحكم به ، فإن كان المذكور به مدحاً استحق صاحبه المدح ، وإن كان ذماً استحق الذم، وإن أثبت شيئاً وجب إثباته ، وإن نفى شيئاً وجب نفيه لأن كلام الله حق ، وكلام رسوله حق ، وكلام أهل الإجماع حق وأما الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم ، والإثبات والنفـــي علـــى معـــناها ، إلا أن يتبيّن أنه يوافق الشرع ، والألفاظ التي تعارض بها النصوص هي من هذا الضرب"[3] .

ومن هذا المنهج السلفي الأصيل ينطلق ابن القيم لرفض مصطلح "الجَبْر" وإطلاقه على من اعتقد أن الله خالق أفعـــال العباد ، والسبب في ذلك أنه ليس في الكتاب والسنة لفظ "جبر" وإنما جاءت السنة بلفظ "الجَبْل" ولذلك يمنع استخدام "الجبر" دلالة على خالقية الله لأفعال العباد لأنه ليس من الألفاظ الشرعية[4] .

يقـــول ابن القيم : "لفظ الجبر لفظ مجمل فإنه يقال : أجبَرَ الأبُ ابنتَهُ على النكاح ، وجبر الحاكمُ الرجلَ على البيع ، ومعنى هذا الجبر : أكرهَهُ عليه ، ليس معناها أنه جعله محبّاً لذلك راضياً به مختاراً له ، والله تعالى إذا خلق فعل العبد جعله محبّاً له ، مختاراً لإيقاعه ، راضياً به ، كارهاً لعدمه فإطلاق لفظ الجبر على ذلك فاسد لفظاً ومعنى فإن الله سبحانه أجلّ وأعدل من أن يجبر عبده بذلك المعنى"[5] .

وبهـــذا يتبيّن التزام ابن القيم بما في الكتاب والسنة والمأثور عن السلف الصالح من الألفاظ والمصطلحات لأن الأصـــل فـــي المصطلحات الشرعية هو الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة الصالحين فإنه لا يدخل في الأدلـــة الســـمعية كـــل قول لم يرد لفظه ولا معناه فيها ولا يعلق بهذه الألفاظ مدح ولا ذم لأن الأصل في الألفاظ الشرعية أن تكون مشتقاة من مشكاة الوحي ومنبع التنزيل .

(٢) الاستعانة باللغة لمعرفة معنى الألفاظ والمصطلحات

---

(١) انظر : منهج ابن القيم في التفسير (ص ١١٩) .

(٢) انظر : الصواعق المرسلة (٦٧٢/٢) ، (٩٢٥/٣ – ٩٥٥) ، مجموع الفتاوى (٢٩٨/٥) ، درء تعارض العقل والنقل (٢٢٢/١ و ٢٩٦) .
وانظر : التدمرية – ابن تيمية ، تحقيق : محمد بن عودة السعوي (ص ٦٥) ، ط/الثانية ، مكتبة العبيكان – الرياض ١٤١٤هـ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٢٤١/١ – ٢٤٢) .

(٤) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٢٩/٢ – ٦٣١) .

(٥) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٣٢/٢) .

وبسبب كون اللغة العربية تعتبر أساساً لفهم النصوص الشرعية ، وبسبب تمكن ابن القيم من اللغة ، جعل منها أحد أسباب فهم معاني الألفاظ والمصطلحات التي تناولها في كتبه ، وامتاز ابن القيم في تناوله – كما بينته آنفاً – المصطلحات بتحليلها ، وإرجاعها إلى مدلولها اللغوي ، وتصريفها واشتقاقها ، وكان في تناوله هذا يمثل العمق والدقة والأصالة حسب قواعد البحث اللغوي[1] فهو يرجح المعنى الصحيح للفظة باعتبار اشتقاقها اللغوي[2] ، ويستشهد بالمعاجم اللغوية والصحاح العربية لبيان المعنى الصحيح للألفاظ والرد على المخالفين[3] ، كما أنه يعتمد على لسان أهل اللغة العرب لبيان شناعة وجناية أهل الأهواء على الألفاظ والمصطلحات[4] .

ومن أمثلة استعانة ابن القيم باللغة لمعرفة الألفاظ والمصطلحات حديثه عند قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[5] حيث قال :

"اختلف في إعراب "من خلق" هل هو النصب أو الرفع ، فإنْ كان مرفوعاً فهو استدلال على علمه بذلك بخلقه له ، والتقدير : أنه يعلم ما تضمنته الصدور وكيف لا يعلم الخلاق ما خلقه ، وهذا الاستدلال في غاية الظهور والصحة ، فإنّ الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته ، وإن كان منصوباً فالمعنى : ألا يعلم مخلوقه ، وذكر لفظة "من" تغليباً ليتناول العلم العاقل وصفاته ، وعلى التقديرين : فالآية دالة على خلق ما في الصدور كما هي دالة على علمه سبحانه به ، وأيضاً : فإنه سبحانه خلقه لما في الصدور دليلاً على علمه بها ، فقال : ألا يعلم من خلق ، أي كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه ، فلو كان ذلك غير مخلوق له بطل الاستدلال به على العلم"[6] .

فابن القيم هنا يستدل بالإعراب وأوجه اللغة لبيان معنى كلمة "الخلق" وأنها عائدة على ما تشتمل عليه الصدور من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض ، وأن في ذلك دليل على أن الله وحده خالق الصدور وما فيها ، وذلك رد على المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الرب سبحانه خالق إرادات العباد ، فيبطل ابن القيم زعمهم على جميع أوجه اللغة ويبيّن أن من أعظم الأدلة على علمه سبحانه للشيء خلقه له ، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم .

(٣) الاستفصال في الألفاظ المجملة قبل قبولها وردها

ومن منهج ابن القيم في المصطلحات والألفاظ المجملة الاستفسار والاستفصال عنها قبل قبولها أو رفضها وهذا هو منهج السلف الصالح مع الألفاظ المجملة .

---

(١) انظر : الإمام ابن القيم لغوياً مفسراً (ص ٢٠) ، ابن القيم اللغوي (٢٣٨) ، الإمام ابن قيم الجوزية وآراؤه النحوية (ص ١٠٢) ، ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه (ص ٨٤) .

(٢) انظر مثلاً : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١٥١/١) .

(٣) انظر مثلاً : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٣٣٩/١) .

(٤) انظر مثلاً : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٤٤٥/١) .

(٥) سورة الملك : آية (١٤) .

(٦) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٣٣٣/١ – ٣٣٤) ، وانظر أيضاً : شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢٤٤/١ – ٢٤٩) .

يقـول ابـن تيمية : (وما تنازع فيه المتأخرون ، نفياً وإثباتاً ، فليس على أحد بل ولا له أن يوافق أحداً على إثـبات لفـظ أو نفيه ، حتى يعرف مراده ، فإن أراد حقاً قُبل ، وإن أراد باطلاً رُدّ ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يُقبل مطلقاً ولم يُرَدّ جميع معناه ، بل يُوقف اللفظ ويفسر المعنى)[٧].

وبهـذه القاعدة المنهجية يتبيّن الهدى من الضلال في أقوال وألفاظ المعارضين للنصوص الشرعية، فلا يلزم أن يوافَـقَ أحدٌ على إثبات لفظ أو نفيه حتى يستفصل ويعرف مراده ، وهذا خلاف منهج أهل الأهواء الذين كانت الألفاظ المجملة أصل ضلالهم .

ويقول ابن القيم : (أصل بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على حق وباطل ، فيطلقها من يريد حقها ، فينكرها من يريد باطلها)[١].

ثم يبيّن ابن القيم منهجيته في الألفاظ بكل وضوح حيث يقول :

(أهـل الباطل يتعلقون بألفاظ نزّلوها على باطلهم لا تدل عليه ، وبمعانٍ متشابهةٍ يشتبه فيها الحق بالباطل، فعمدتهم المتشابه من الألفاظ والمعاني ، فإذا فصّلت وبيّنت يتبيّن أنها لا دلالة فيها ، وأنها مع ذلك تدل على نقيض مطلوبهم)[٢] .

ومن الأمثلة على منهجية الاستفصال عند ابن القيم ما يلي :

المـثال الأول : ادعـاء الجبرية أنه إذا كان المرجِّح للفعل على الترك من الله وليس من العبد، فإنه بذلك يلزم الجبر .

ويجيب ابن القيم فيقول : (إن عنيتم بالجبر: أنه غير مختار للفعل ، ولا مريد له ، لم يلزم الجبر بهذا الاعتبار، لأن الرب تعالى جعل المرجِّح اختيار العبد ومشيئته، فانتفى الجبر ، وإن عنيتم بالجبر: أنه وجد لا بإيجاد العبد، لـم يلزم الجبر أيضاً بهذا الاعتبار ، وإن عنيتم: أنه يجب عند وجود المرجِّح، وأنه لا بد منه ، فنحن لا ننفي الجـبر بهـذا الاعتبار ، وتسمية ذلك جبراً اصطلاح محض ، وهو اصطلاح فاسد، فإن فعل الرب سبحانه يجب عند وجود مرجِّحه التام ، ولا يكون ذلك جبراً بالنسبة إليه سبحانه)[٣] .

والمثال الثاني : حول مصطلح "الإحداث" حيث زعم الجبريون أن العبد لو كان فاعلاً لفعله لكان مُحْدِثاً له .

ويجيب ابن القيم عن هذا الاعتراض باستفصال معنى لفظ "مُحْدِث" ما هو عندهم ؟

فـإن أرادوا بكونه مُحْدِثاً صدور الفعل منه، اتحد اللازم والملزوم ، وصار حقيقة قولهم : لو كان فاعلاً لكان فاعلاً !!

وإنْ أرادوا بكونه مُحْدِثاً كونه خالقاً – سألناهم ما تعنون بكونه خالقاً ؟ هل تعنون به كونه فاعلاً أم تعنون به أمراً آخر ؟ فإن أرادوا الأول كان اللازم فيه عين الملزوم ، وإن أرادوا أمراً آخر غير كونه فاعلاً فليبينوه.

فـإن قالوا : نعني به كونه مُوجِداً للفعل من العدم إلى الوجود ، قيل لهم : هذا معنى كونه فاعلاً ، فما الدليل على إحالة هذا المعنى ؟[٤]

---

(٧) التدمرية (ص ٦٥ – ٦٦) ، وانظر أيضاً : درء تعارض العقل والنقل (١/٢٩٦ – ٢٩٩) ، مجموع الفتاوى (٥/٢٩٩) .

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٦٠) .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢/٥٤٦) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧٠٧) .

(٤) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧٠٩) .

يقول ابن القيم : (فسموه ما شئتم إحداثاً ، أو إيجاداً ، أو خلقاً ، فليس الشأن في التسميات ، وليس الممتنع إلا أن يكون مستقلاً بالإيجاد ، وهذا غير لازم لكونه فاعلاً فإنا قد بينا أن غاية قدرة العبد وإرادته وداعيه وحركته أن تكون جزء سبب ، وما توقف عليه الفعل من الأسباب التي لا تدخل تحت قدرته وكسبه أكثر من الجزء الذي إليه بأضعاف مضاعفة ، والفعل لا يتم إلا بها .

فإن قيل : فهذا الجبر بعينه ، قيل : ذاك السبب الذي أعني به من القدرة والإرادة هو الذي أخرجه من الجبر وأدخله في الاختيار ، وكون ذلك السبب من خالقه وفاطره ومنشئه هو الذي أخرجه من الشرك والتعطيل ، وأدخله في باب التوحيد ، فالأول أدخله في باب العدل ، والثاني أدخله في باب التوحيد ، ولم يكن ممن نقض التوحيد بالعدل ولا ممن نقض العدل بالتوحيد ، فهؤلاء جنوا على التوحيد ، وهؤلاء جنوا على العدل ، وهدى الله أهل السنة للتوحيد والعدل ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[1] .

فهنا نجد ابن القيم لم يقبل قولهم أو يرده قبل أن يستفصل ألفاظه ويمحص ما فيه من حق وباطل ، فالقضية ليست مجرد تسميات ومصطلحات ، بل القضية ما تحتويه هذه الألفاظ من المعاني التي قد تحتمل الحق والباطل وحينئذ فلا بد من استفصالها لبيان ما فيها من حق وباطل وهذا شأن جميع الألفاظ المجملة .

والمثال الثالث : مصطلح "التسلسل" وهنا تظهر منهجية ابن القيم بكل وضوح ، حيث بيّن أن معرفة اللفظ والمصطلح موقوفة على معرفة ألفاظ ومعاني الكتاب والسنة ، وهل هذا المصطلح من ألفاظهما ، أو لم يرد فيه شيء ؟ وموقوفة – أيضاً – على معاني هذه الألفاظ العقلية عند من يستخدمها وينطق بها ، ماذا يقصد بها وماذا يريد منها ؟

يقول ابن القيم : (التسلسل لفظ مجمل لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ناطق ولا سنة متبعة فيجب مراعاة لفظه)[2]

ثم يمضي ابن القيم بعد ذلك في بيان أقسام وأنواع التسلسل ، ما يصح منها وما لا يصح ، ما يتوافق مع الشرع وما لا يتوافق كل ذلك من خلال منهجية الاستفصال .

(٤) استقصاء ألفاظ النص لمعرفة المراد بها على وجه الحقيقة

ومن منهجية ابن القيم تجاه الألفاظ والمصطلحات استنباطها من النص ، ثم استقصاؤها لمعرفة المراد بها على وجه الحقيقة ، وهدف ابن القيم من هذا الاستقصاء هو أن يدلل بمجموع هذه الألفاظ على الفهم الصحيح والمراد من النص الشرعي ، كما أنه يهدف بذلك إلى بيان بطلان وفساد المفاهيم المنحرفة التي تزعم أنها استنبطت من النص .

ومن الأمثلة على منهجية استقصاء الألفاظ عند ابن القيم ما يلي :

المثال الأول : حديث "احتجاج آدم وموسى عليهما السلام"[3] فقد اختلفت حوله الآراء ، وتباينت الأقوال ، وقد استخدم ابن القيم هنا منهجية الاستقصاء لبيان حقيقة المراد بالاحتجاج في الحديث الشريف ، وتفنيد مزاعم أهل الأهواء[4] .

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧٠٩ – ٧١٠) .
(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧٢٥) .
(٣) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٨٩ – ١١٦) .
(٤) انظر تمام هذه المسألة في : الباب الخامس ، الفصل الثاني ، المبحث الثاني ، المطلب الأول .

والمثال الثاني : حديث "الفطرة"[1] وقد اختلفت – أيضاً – الآراء حوله ، ولبيان حقيقة الفطرة في هذا الحديث الشريف ، يستخدم ابن القيم منهجية استقصاء ألفاظ النص لتشكّل بمجموعها المعنى الصحيح للفطرة ، يقول ابن القيم :

(هذا الحديث قد روي بألفاظ يفسر بعضها بعضاً)[2] ثم يمضي في عرض هذه الألفاظ الموجودة في نص الروايات ، ثم يخلص إلى هذه النتيجة ، حيث يقول : (فهذا صريحٌ أنه يولَدُ على ملة الإسلام)[3] .

(٥) عدم رد الألفاظ الصحيحة لأجل ما علقه عليها أهل الباطل

ومن منهجية ابن القيم تجاه الألفاظ الصحيحة عَدَمُ ردِّها بسبب ما علقه عليها أهل الباطل والأهواء ؛ فالشأن ليس فيما علقوه أو نسبوه ، وإنما الشأن في صحة المصطلح ، وصحة مدلوله ومعناه ؛

يقول ابن القيم : (والمقصود أنا لا نجحد محبته تعالى لما يحبه ، وكراهته لما يكرهه لتسمية النفاة لذلك ملاءمة ومنافرة ، وينبغي التفطن لهذا الموضع ، فإنه من أعظم أصول الضلال ؛ فلا نسمي العرش حيزاً ، ولا نسمي الاستواء تحيزاً ، ولا نسمي الصفات أعراضاً ، ولا الأفعال حوادثَ ، ولا الوجه واليدين والأصابع جوارح وأعضاء ، ولا إثبات صفات كماله التي وصف بها نفسه ، ووصفه بها رسوله تجسيماً وتشبيهاً ، فنجني جنايتين عظيمتين ، جناية على اللفظ ، وجناية على المعنى ، فنبدل الاسم ، ونعطل معناه ، ونظير هذا تسمية خلقه سبحانه لأفعال عباده وقضائه السابق جبراً)[4] .

ويقول ابن القيم أيضاً : (الجبر : لفظ مجمل يراد به حق وباطل كما تقدم ، فإنْ أردتم به أنَّ العبد مضطر في أفعاله ، وحركته في الصعود في السلم كحركته في وقوعه منه ، فهذا مكابرة للعقول والفطر ، وإنْ أردتم به ؛ أنه لا حول له ولا قوة إلا بربه وفاطره ، فنعم لا حول ولا قوة إلا بالله ، وهي كلمة عامة لا تخصيص فيها بوجه ما ، فالقوة : القدرة ، والحول : الفعل ؛ فلا قدرة له ولا فعل إلا بالله ، فلا ننكر هذا ولا نجحده لتسمية القدري له جبراً ، فليس الشأن في الأسماء)[5] .

(٦) الأمانة في نسبة المصطلحات إلى أصحابها كما فهموها

ومن منهجية ابن القيم في الألفاظ والمصطلحات فهمها على حقيقتها ؛ وذلك بعد دراسة المصطلح بشكل جيد ، من خلال مفهوم ومراد المتكلم به ، في عصره وزمنه الذي أصبح المصطلح متداولاً فيه ؛ وذلك لأن ابن القيم يعلم جيداً أن الألفاظ والمصطلحات تتغير دلالتها بين السلف والخلف ، فبعض المصطلحات توجد بألفاظها عند الطوائف المختلفة ، ولكن معانيها تختلف ، بل قد تتناقض ، والسبب أن كل طائفة تفسر الألفاظ حسب ما يتوافق مع أصولها العقائدية ؛ ولذا تجد كثيراً من هذه الفرق والطوائف قد حملت الألفاظ المعانيَ التي قد تخالف القرآن والسنة والإجماع واللغة العربية !

---

[1] انظر : شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢/٦٠٥ – ٧٠٦) .

[2] شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢/٦١٤) .

[3] شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢/٦١٦) . وانظر تمام هذه المسألة في : الباب الخامس ، الفصل الثاني ، المبحث الثاني ، المطلب الثاني .

[4] شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٢٩) .

[5] شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٨٤ – ٦٨٥) ، وانظر : الصواعق المرسلة (٣/٩٥٢ – ٩٥٣) .

وابن القيم بعد دراسة وافية للألفاظ والمصطلحات ، ينسبها بكل أمانة وموضوعية إلى أصحابها كما قرروها في مصادرهم الأصلية ، دون زيادة أو نقص أو تجني ، ثم يعالجها ابن القيم بالنقد والتمحيص .

ومن الأمثلة على منهجية الفهم الصحيح للألفاظ والأمانة في نسبتها إلى أصحابها عند ابن القيم ما يلي :

فمصطلح "الكسب" من المصطلحات التي كثر التنازع حولها فالجميع يقول بلفظه ، ولكنهم جميعاً يختلفون حول حقيقته يقول ابن القيم : (الطوائف كلها متفقة على الكسب ومختلفون في حقيقته)[1] ، ويقول : (لفظ الكسب تطلقه القدرية على معنى ، والجبرية على معنى ، وأهل السنة والحديث على معنى)[2] .

ثم بعد ذلك يشرع ابن القيم في بيان حقيقة الكسب – بكل أمانة وموضوعية – عند كل طائفة ، مع نسبة المصطلح لقائله ، وبالرجوع إلى مصادر هذه الطوائف نجد أن ابن القيم لم ينسب لهم ما لم يقله ، وهذا دليل على منهجية الأمانة العلمية التي يتحلى بها ابن القيم[3] .

مما تقدَّم يتبيَّن بوضوح أهمية الألفاظ والمصطلحات عند ابن القيم في كتبه بشكل عام ، وفي كتابه "شفاء العليل" بشكل خاص ، كما تبيَّنت عنايته – رحمه الله – بالألفاظ ومدلولاتها من خلال منهجيته الخاصة التي اتبعها أثناء معالجته للمصطلحات المجملة والمعاني المتشابهة، كل ذلك الاهتمام نابع من معرفته العميقة؛ أن أصل ضلال الطوائف والفرق إنما هو من الألفاظ المجملة التي تحتمل الحق والباطل، ففتح بسببها باب الضلال والانحراف على مصراعيه؛ ولذلك فلا بد للأمة من علماء يشتغلون بدراسة الألفاظ الشرعية والعربية دراسة واعية، وافية، مستوعبة، حتى يتبيَّن الضلال من الهدى ، وكان من هؤلاء ابن القيم الذي تمرس على هذه المنهجية النقدية للمصطلحات بشكل متميز ، وعلى يد شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فقد كان ابن تيمية والمدرسة السلفية بشكل عام من أهل العناية والاهتمام بنقد الألفاظ والمصطلحات لما لذلك من فائدة عظيمة تعود على الدين والناس.

وفي ختام هذا المبحث الخاص بالألفاظ والمصطلحات، سوف أعرض – بمشيئة الله – بعض النماذج المنهجية التي سلكها ابن القيم في كتابه "شفاء العليل" تجاه الألفاظ والمصطلحات ذات العلاقة بموضوع الكتاب الأساس وهو (القضاء والقدر وقضية وجود الشر) .

فمن تلك النماذج المنهجية ما يلي :

النموذج الأول : ألفاظ ومصطلحات خاصة بقضية أفعال العباد

عند عرض ابن القيم لقضية الكسب وأفعال العباد، برزت مشكلة مهمة جداً، وهي استخدام ألفاظ ذات دلالة وإيحاء على معانٍ فاسدة، فالبعض توقف في نسبة بعض الألفاظ إلى العباد عند الألفاظ الشرعية الواردة كلفظ "الكسب"، وبعضهم توسع في الألفاظ حتى أطلق لفظة "خالق" ولفظة "مُحدِث" على العباد![4]

---

(1) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٣٧) .

(2) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٠٩) .

(3) لبيان هذه المسألة بشكل تفصيلي انظر : الباب الرابع ، الفصل الثالث .

(4) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٣٧ – ٦٤١) .

وابـــن القـــيم كما هي عادته المنهجية مع الألفاظ والمصطلحات المجملة قد مارس منهجية الاستقصاء ثم الاستفصـــال فـــي الألفاظ ذات العلاقة بالموضوع ولذلك تتبع هذه المجموعة من المصطلحات والتي سوف نفصل أمرها بعد قليل.

ومـــن تلك المصطلحات : فاعل، وعامل، ومكتسب، وكاسب، وصانع، ومحدث، وجاعل، ومؤثر، ومنشئ، وموجد، وخالق، وبارئ، ومصور، وقادر، ومريد[1] .

ثم يشرع ابن القيم في تقسيم هذه الألفاظ إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : قسم لم يطلق إلا على الرب سبحانه **كالبارئ ، والبديع ، والمبدع** .

القسم الثاني : قسم لا يطلق إلا على العبد **كالكاسب ، والمكتسب** .

القســـم الثالـــث : قسم وقع إطلاقه على الرب والعبد كاسم **صانع ، وفاعل ، وعامل ، ومنشئ ، ومريد ، وقـــادر وأمـــا الخـــالق ، والمصور** فإن استعملا مطلقين غير مقيدين لم يطلقا إلا على الله، وإن استعملا مقيدين أطلقا على العبد[2] .

يقول ابن القيم : وبهذا الاعتبار صح إطلاق "خالق" على العبد في قوله تعالى: فتبارك الله أحسن الخالقين أي أحســـن المصورين والمقدرين، والعرب تقول: قدّرت الأديم وخلقته إذا قسته لتقطع منه مزادة أو قربة أو نحوها[3].

وأما مصطلح (البارئ) فلا يصح إطلاقه إلا عليه سبحانه فإنه الذي برأ الخليقة وأوجدها بعد عدمها والعبد لا تتعلق قدرته بذلك إذ غاية مقدوره التصرف في بعض صفات ما أوجده الرب تعالى وبرأه وتغييرها من حال إلى حال على وجه مخصوص لا تتعداه قدرته.

وكذلك (المبدع) لا يصح إطلاقه إلا على الرب لأن الإبداع إيجاد المبدَع على غير مثال سبق، والعبد يسمى مبتدعًا لكونه أحدث قولًا لم تمض به سُنَّة، ثم يقال لمن اتبعه عليه مبتدع أيضًا.

وأما لفظ [illegible] فلم يقع في أسمائه سبحانه، وإن كان هو الموجد على الحقيقة، وغير ممتنع أن يطلق على مـــن يفعل بالقدرة المحدثة أنه أوجد مقدوره كما يطلق عليه أنه فعله، وعمله، وصنعه، وأحدثه، لا على سبيل الاستقلال.

وأمـــا لفظ (المؤثر) فلم يرد -أيضًا- إطلاقه في أسماء الرب، وقد وقع إطلاق الأثر والتأثيرعلى فعل العبد، وهنا يستنكر ابن القيم على المتكلمين -خاصة الأشاعرة- منعهم إطلاق التأثير والمؤثّر على العباد وقد أطلقه عليهم القرآن والسنة يقول ابن القيم :

ولما كان التأثير تفعيلاً من أثّرت في كذا تأثيراً فأنا مؤثّر لم يمتنع إطلاقه على العبد.

وأما لفظ (الصانع) فلم يرد في أسماء الرب سبحانه، ولا يمكن ورودها فإن الصانع من صنع شيئًا عدلًا كان أو ظلمًا ، سفهًا أو حكمة ، جائزًا أو غير جائز.

ثم يضع ابن القيم قاعدة منهجية في بيان ذلك حيث يقول :

---

(1) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٤٢/٢) .

(2) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٤٢/٢) .

(3) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٤٣/٢) .

أما انقسم مسماه إلى مدح وذم لم يجئ اسمه المطلق في الأسماء الحسنى كالفاعل، والعامل، والصانع، والمريد، والمتكلم؛ لانقسام معاني هذه الأسماء إلى محمود ومذموم، بخلاف العالم، والقادر، والحي، والسميع، والبصير)[1].

وأما لفظ (الإنشاء) فإنما وقع إطلاقه عليه سبحانه فعلاً، ولم يرد لفظ المنشئ، وأما العبد فيطلق عليه الإنشاء باعتبار آخر وهو شروعه في الفعل وابتداؤه له، يقول: أنشأ يحدثنا، وأنشأ السير فهو منشئ لذلك، وهذا إنشاء مقيد ، وإنشاء الرب إنشاء مطلق ، وهذه اللفظة تدور على معنى الابتداء ، أنشأه الله أي ابتدأ خلقه ، وأنشأ يفعل كذا ابتدأ ، وفلان ينشئ الأحاديث أي يبتدئ وضعها ، والناشئ أول ما ينشأ من السحاب .

وأما لفظ (الجعل) فقد أطلق على الله سبحانه بمعنيين : أحدهما : الإيجاد والخلق ، والثاني : التصيير ، وأطلق على العبد بالمعنى الثاني خاصة ، وغالب ما يستعمل في حق العبد في جعل التسمية والاعتقاد حيث لا يكون له صنع في المجعول.

وأما لفظ (الفعل) ، و(العمل) فإطلاقه على العبد كثير، وأطلقه الله على نفسه فعلاً واسماً[2].

من هذا النموذج المتقدم تتضح بجلاء منهجية ابن القيم في الألفاظ والمصطلحات؛ حيث إنه استقصى المصطلحات ذات العلاقة بالمسألة، ثم استفصلها، ثم حللها، ثم بيَّن ما يصح إطلاقه على العباد ومالا يصح، وبذلك تم بيان هذه الألفاظ المجملة التي كانت الطوائف تطلقها أو تمنع إطلاقها دون وجه حق .

يقول ابن القيم : (ينبغي الاعتناء بكشف هذا الباب وتحقيق معناه، فبذلك ينحل عن العبد أنواع من ضلالات القدرية والجبرية، حيث لم يعطوا هذا الباب حقه من العرفان)[3] .

والنموذج الثاني : (ألفاظ ومصطلحات خاصة بقضية وجود الشر في العالم)

من المسائل التي أثيرت حول قضية وجود الشر في العالم ، مسألة "إرادة الله للشر" نفياً أو إثباتاً ، وقد دار حولها الخلاف بين الطوائف والفرق المختلفة المتنازعة .

فذهبت القدرية إلى أنه لا يجوز أن يقال: إن الله سبحانه مريد للشر أو فاعل له؛ لأن مريد الشر وفاعله شرير، وقالوا: قد قام الدليل على أن فعله سبحانه عين مفعوله ، والشر ليس بفعل له ، فلا يكون مفعولاً له .

وقابلهم الجبرية فقالوا : بل الرب سبحانه يريد الشر ويفعله؛ لأن الشر موجودٌ فلا بد له من خالق ، ولا خالق إلا الله ، وهو سبحانه إنما يخلق بإرادته ، فكل مخلوق فهو مراد له وهو فعله ، ووافقوا القدرية على أن الفعل عين المفعول والخلق نفس المخلوق، والشر مخلوق له ومفعول ، فهو فعله وخلقه وواقع بإرادته[4].

وهنا نجد أن القدرية والجبرية جميعهم ذهبوا إلى إطلاق القول في مسألة "إرادة الله للشر" نفياً أو إثباتاً، دون مراعاة ما في هذا الإطلاق من باطل !

---

(1) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٤٦/٢) .

(2) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٤٧/٢ — ٦٥٢) .

(3) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٥٤/٢) .

(4) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٥٥٠/٢ — ٥٥١) .

وتحقيق القول في ذلك: أنه يمتنع إطلاق إرادة الشر على الله وفعله، نفياً وإثباتاً لما في إطلاق لفظ "الإرادة والفعل" من إبهام المعنى الباطل، ونفي المعنى الصحيح فإن "الإرادة" تطلق بمعنى المشيئة، وبمعنى المحبة والرضا.

فالإرادة بالمعنى الأول: تستلزم وقوع المراد، ولا تستلزم محبته والرضا به.

والإرادة بالمعنى الثاني: لا تستلزم وقوع المراد وتستلزم محبته والرضا به هذا إذا تعلقت الإرادة بأفعال العباد، وأما إذا تعلقت بأفعال الله سبحانه فإنها لا تنقسم بل كل ما أراده من أفعاله فهو محبوبٌ مرضيٌ له، ففرق بين إرادة أفعاله وإرادة مفعولاته؛

إن أفعال الله كلها خير وعدل ومصلحة وحكمة لا شر فيها بوجه من الوجوه، وأما مفعولاته فهي مورد الانقسام، وهذا التفصيل والاستقصاء والاستفصال إنما يتحقق على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقولون: إن الفعل غير المفعول، والخلق غير المخلوق.

ويخلص ابن القيم – مما تقدم – إلى تقسيم الإرادة إلى إرادتين، والمراد إلى مرادين:

فالإرادة الأولى هي: إرادة أن يفعل، ومرادها فعله القائم به.

والإرادة الثانية هي: إرادة أن يفعل عبده، ومرادها مفعوله المنفصل عنه، وليسا بمتلازمين، فقد يريد من عبده أن يفعل ولا يريد من نفسه إعانته على الفعل وتوفيقه له وصرف موانعه عنه، كما أراد من إبليس أن يسجد لآدم ، ولم يرد من نفسه أن يعينه على السجود ويوفقه له ويثبت قلبه عليه ويصرفه إليه ولو أراد ذلك منه لسجد له لا محالة.

والنتيجة النهائية من ذلك ، أنه إذا قيل : الله مريد للشر أوهم أنه محب له راض به، وإذا قيل: إنه لم يرده أوهم أنه لم يخلقه ولا كوّنه وكلاهما باطل، وكذلك إذا قيل: إن الشر فعله، أو إنه يفعل الشر ، أوهم أن الشر فعله القائم به، وهذا محال، وإذا قيل: لم يفعله أو ليس بفعل له ، أوهم أنه لم يخلقه ولم يكوّنه وهذا محال[1].

يقول ابن القيم بعد هذا التفصيل والبيان الشافي:

" انظر ما في إطلاق هذه الألفاظ في النفي والإثبات من الحق والباطل الذي يتبيّن بالاستفصال والتفصيل، وأن الصواب في هذا الباب ما دل عليه القرآن والسنة من أن الشر لا يضاف إلى الرب تعالى وصفاً ولا فعلاً، ولا يتسمّى باسمه بوجه من الوجوه "[2].

والنموذج الثالث : (**ألفاظ ومصطلحات خاصة بالقضاء والقدر**)

يحتوي كتاب "شفاء العليل" على كثير من الألفاظ والمصطلحات الخاصة بموضوع القضاء والقدر والحكمة والتعليل، وقد تميز ابن القيم –رحمه الله– في معالجته المنهجية لتلك المصطلحات، وقد يكون من النادر أن نجد مثله قد عالجها بنفس طريقته ومنهجيته، ولذلك فإن موضوعاً بمثل قيمة موضوع "**المصطلحات والألفاظ**" عند ابن القيم يستحق رسالة خاصة به لأهميته وعظم مكانته، خاصة في الجانب العقائدي.

---

[1] انظر : شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢/٥٥١ – ٥٥٣) .

[2] شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢/٥٥٣) .

وكمـا ذكرتُ آنفاً فإنَّ المصطلحات التي ذكرها ابن القيم في كتابه كثيرة جداً، ويتطلب تتبعها ودراستها في رسـالة مسـتقلة؛ ولذلك سأعرض هنا – بمشيئة الله – جملة من المصطلحات والألفاظ، وأبيِّن بشكل سريع كيف عالجها ابن القيم بمنهجيته الخاصة.

فمن تلك المصطلحات التي ذكرها في كتابه ما يلي :

(١) **المجموعة الأولى** ، وتتكون من : القضاء ، والحكم ، والإرادة ، والكتابة ، والأمر ، والإذن ، والجعل، والكلمات ، والبعث ، والإرسال ، والتحريم ، والإنشاء[(١)].

ويبيِّن ابن القيم أن هذه المصطلحات تنقسم إلى :

إلـى كونـي مـتعلِّق بخلقه، وإلى ديني متعلِّق بأمره، وأن يعلم ذلك التقسيم والبيان يزيل كثيراً من اللبس والإشـكال، فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من الديني فهو متعلق بإلاهيته وشرعه، وهـو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق: قضاؤه وقدره وفعله، والأمر شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدراً وشرعاً، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري، وأمـا حكمه الديني الشرعي؛ فيعصيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين؛ فقد يقضي ويقدِّر ما لا يأمر بـه ولا شـرعه، وقـد يشرع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدِّره، ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمـانهم، وينتفي الأمران عما لم يقع من المعاصي والفسق والكفر، وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي فيما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور، وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي[(٢)].

ثـم يشـرع ابـن القيم في التقسيم التفصيلي مع ذكر الأدلة على ذلك، ثم يبيِّن ابن القيم ما يتوقف على هذا البـيان، والتقسيم، والتفصيل، من مسائل عظيمة في القضاء والقدر، لا يتم بيانها إلا عندما يتم بيان الكونيات والشرعيات[(٣)].

(٢) **المجموعـة الثانـية** ، وتـتكون من : الختم ، والطبع ، والأكنة ، والغطاء ، والغلاف ، والحجاب ، والوقـر ، والغشاوة ، والران ، والغل ، والسد ، والقفل ، والصمم ، والبكم ، والعمى ، والصد ، والصرف ، والشـد على القلب ، والضلال ، والإغفال ، والمرض ، وتقليب الأفئدة ، والحول بين المرء وقلبه ، وإزاغة القلوب ، والخذلان ، والإركاس ، والتثبيط ، والتزيين .. إلخ[(٤)] .

وهـنا نجـد ابن القيم قد أطال النفس في دراسة هذه الألفاظ والمصطلحات، وبيَّن ما فيها، ثم وضح أن أكثر الفرق والطوائف كالقدرية والجبرية، قد ضلت فيها، فحرفتها بأنواع التحريف المبطل لمعانيها وما أريد منها، وابـن القيم في هذا الصدد يعرض آراء القدرية والجبرية فيها، ثم يعقب ذلك بالنقد والتقويم، مبيناً مزاعمهم وتحريفاتهم للألفاظ الشرعية[(٥)].

---

(١) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٥٩٣/٢) .

(٢) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢١٣/١ ، ٣٠٢) وتحقيق : العجلان (٥٩٣/٢ – ٦٠٤) .

(٣) لقد تم تفصيل هذه المسألة وفوائدها في : الباب الثالث ، الفصل الأول .

(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٤٧٥/٢) .

(٥) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٤٥٢/٢ – ٥٥٠) .

وتظهـر مـن دراسـة ابن القيم لهذه المصطلحات والألفاظ، منهجيته بكل وضوح فالاستقصاء للألفاظ، ثم الاستفصال، ثم بيان معانيها ومدلولاتها الصحيحة بعد إبطال التحريفات التي لحقتها من أهل الأهواء والباطل، كل ذلك يؤكد عناية ابن القيم بالمصطلحات[1].

ومما تقدم يتضح بجلاء مكانة المصطلح عند ابن القيم في كتابه، ومنهجيته العلمية في التعامل مع الألفاظ ، ولا شـك أن هـذه المكانة نابعة من معرفة ابن القيم لخطورة المصطلحات المجملة والمعاني المتشابهة في الشـريعة الإسلامية ، ولذلك لا نستغرب هذه العناية الفائقة منه تجاه الألفاظ والمصطلحات ، فهي أصل في هداية الناس أو ضلالهم والله أعلم.

(1) أقـول : إنه من الأهمية بمكان تخصيص رسالة مستقلة حول عناية ومنهجية ابن القيم تجاه الألفاظ والمصطلحات في كتبه ، فدراسة مثل هذه القضية – لا شك – ستعود بالنفع الكبير علـى الـدارس والقـارىء ، وحريّ أن يخدم منهج ابن القيم في هذه المسألة بشكل خاص ، ومنهج المدرسة السلفية في المصطلحات بشكل عام ، فأمام الباحث مادة غنية ورائعة يمكن أن يستفيد منها ويفيد ، من أجل رسم منهج واضح ومتكامل وسلفيّ تجاه الألفاظ والمصطلحات المجملة التي كانت حقيقةً من أهم أسباب ضلال الناس وانحرافهم والله الموفق .

المبحث الثاني

استنباط ابن القيم للأصول العقدية

في مسائل القضاء والقدر من النصوص الشرعية

من أعظم ما يميز المدرسة السلفية عن غيرها اعتمادها على الكتاب والسنة ، وعدم النظر إلى غيرهما إذا وجد النص؛ لأن الله سبحانه بيّن فيهما كل ما تحتاجه البشرية في دنياها وآخرتها ، وأمر الله تعالى عباده بالرجوع إلى كتابه ورسوله عند التنازع؛ قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[1].

ولذلك تميز منهج السلف الصالح في الأخذ بنصوص الكتاب والسنة بميزات وخصائص جعلتهم ينجون من الحيرة والتناقض والاضطراب الذي وقع فيه من زاغ عن الكتاب والسنة وابتغى الهدى في غيرهما ؛ ولذا كان أهم ما تميز به السلف أنهم كانوا وقافين عند نصوص الشرع ، فلا يعارضونها بآرائهم واجتهاداتهم ، ولا يترددون في الأخذ بها ، بل يعظمونها ، ويسلمون لها[2] .

وكانت هذه الخصيصة هي أبرز الخصائص التي قام بنشرها وتدعيمها ابن القيم على أنقاض الرد إلى محض الآراء ومستبعد الأقيسة وفاسد التأويل ، وكان منهجه الأصيل في الأخذ بالنص قائم على مكانته عنده وتعظيمه له ، ثم هو نتيجة طبيعية لفشل المناهج الأخرى في الوصول إلى الحق؛ ولذلك كان ابن القيم يعتمد في بحثه أكثر ما يعتمد على منهج التلقي من كتاب الله تعالى ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى[3] .

فالاعتماد على النص الشرعي سمة بارزة في منهج ابن القيم – رحمه الله – ولأجل تعظيم النصوص الدينية ألف ابن القيم كتابه العظيم: "**الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**" الذي دافع فيه عن النص الشرعي في وجه التحريف والتأويل والعبث ، كل ذلك حفاظاً على قيمة وقداسة الكتاب والسنة عنده .

يقول ابن القيم : (ولا سبيل إلى مقابلته – أي: النص الشرعي – إلا بالسمع والطاعة ، والإذعان والقبول ، وليس لنا بعده الخيرة ، وكل الخيرة في التسليم له والقول به ، ولو خالفه مَنْ بين المشرق والمغرب)[4] .

وهذا القول من ابن القيم تأكيد منه على وجوب اتباع نصوص الكتاب والسنة ، والتحاكم إليهما دون ما سواهما ، كل ذلك يؤكد على مكانة النص عنده .

وإذا كانت هذه هي مكانة النص عند ابن القيم ، فإنه جعل النص الشرعي أساساً لاستنباط الأصول العقدية خاصة ما يتعلق بمسائل القضاء والقدر في كتابه "**شفاء العليل**" .

واستنباط ابن القيم من النص قائم على منهجية واضحة في كتابه هذا ، وفي جميع كتبه بشكل عام ، ولرسم صورة عن هذه المنهجية الاستنباطية عند ابن القيم أقول :

يتمثل منهج ابن القيم في استنباط الأصول العقدية من النص الشرعي كما يلي :

أولاً : تقديم النص وتعظيمه

---

(١) سورة النساء : آية (٥٩) .

(٢) انظر :

- موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة ، عرضاً ونقداً – سليمان بن صالح الغصن (٦١/١) ، ط/الأولى ، دار العاصمة – الرياض ١٤١٦هـ .
- منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله – د. أحمد بن عبدالعزيز الحلف (ص ٤١٦) ، ط/ الأولى ، مكتبة أضواء السلف – السعودية ١٤١٩هـ .

(٣) انظر : ابن قيم الجوزية سيرته منهجه وآراؤه في الإلهيات – د. محمد الأنور السهوتي (ص ٣٩) ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض ١٤٠٧هـ ، المدرسة السلفية (٦٣٧/١) ، ابن القيم الجوزية حياته وآثاره (ص ٤٨ – ٤٩) .

(٤) الروح – ابن القيم (ص ١٣٦) دار الكتب العلمية – بيروت ١٣٩٥هـ .

للنص الشرعي عند ابن القيم المكانة الأولى في الاستنباط والاستدلال؛ فقد كان – رحمه الله – يقف عند النص لا يتجاوزه؛ اعتقاداً منه أن أصل الهداية فيه ، وأن أصل الضلال في مخالفته ، فكان إذا تكلم بالنص ، وإذا أفتى أفتى بموجبه ، وإذا استنبط استنبط منه ، وإذا رد على مخالف رد به ومنه ، وإذا سئل عن شيء أحال عليه وذلك في جميع مسائل الدين؛ فقد كان ابن القيم دائماً يطلب النص في مناقشاته ، ومناظراته ، وكتبه ، ويطالب خصومه بالنص ليثبتوا ما ذكروه؛ لأنه لا يتجاوزه بل يقف عنده ويطلبه ويذعن له[1] .

يقول ابن القيم مبيناً أهمية النص وأنه وحده النجاة في قضايا العقيدة وخاصة القضاء والقدر : "أغنى الله به عن تكلف المتنطّعين ، وآراء المتهوّكين ، ومعقولات المتفلسفين ، وخيالات المتصوّفين ، وجدل المتكلّمين ، وأقيسة المتكلّفين ، فاكتفى بما جاء به العارفون ، واستوحش من كثير منه الجاهلون ، وعدلوا عنه إلى ما يناسب أعينهم الرُّمد ، وبصائرهم العُمْي ، وظنوا أنهم بذلك يهتدون"[2] .

ثم بعد ذلك يقول : "فإن القدر بحر محيط لا ساحل له ، ولا خروج عنه لأحد من العالمين ، والشرع فيه سفينة النجاة ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها فهو من المغرقين"[3] .

ودائماً ما يعلّق ابن القيم النجاة والفلاح بالتمسك بالنصوص الشرعية ، والأخذ بما فيها ، ويربط الانحراف والهلاك والضلال بتركها أو مخالفة ما فيها ، أو مقابلتها بالتحريف والتأويل الفاسد؛ يقول رحمه الله :

يا أيُّها الرجلُ المريدُ نجاتَهُ	***	إسمَعْ مقالةَ ناصحٍ مِعْوانِ
كن في أمورك كلِّها مستمسكاً	***	بالوحي لا بزخارفِ الهذَيانِ
وانصُرْ كتابَ اللهِ والسُّنَنَ التي	***	جاءت عن المبعوثِ بالفرقانِ
واضربْ بسيف الوحي كلَّ معطِّلٍ	***	ضَرْبَ المجاهدِ فوق كل بنانِ
واجعلْ كتابَ الله والسننَ التي	***	ثبتَتْ سلاحَكَ ثم صِحْ بِجَنَانِ
مَنْ ذا يبارزُ فليقدِّمْ نفسه	***	أو مَنْ يسابقْ يَبْدُ في الميدانِ
واصدعْ بما قال الرسولُ ولا تخَفْ	***	مِنْ قلة الأنصارِ والأعوانِ
وادرأْ بلفظِ النصِّ في نَحْرِ العدا	***	وارجُمْهُمُ بثواقبِ الشُّهْبانِ[4]

ويبيِّنُ ابن القيم أنَّ النصوص الشرعية لو أعطيتْ حقها؛ لارتفع أكثر النزاع من العالم ، ولكن خفيت النصوص، وفهم منها خلاف مرادها ، وانضاف إلى ذلك تسليط الآراء عليها ، فتضاعف البلاء وعظم الجهل[5].

ويقول – رحمه الله – مبيناً حال الناس في البحث عن الخلاص في موضوع القدر :

(١) انظر : ابن القيم المنتخب – د. عوض الله جاد أحمد حجازي (ص ٦٦) ، رسالة دكتوراه في العقيدة ، كلية أصول الدين ، الجامع الأزهر ١٣٦٦هـ .
(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٦-٧) .
(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٨) .
(٤) شرح القصيدة النونية – د. محمد خليل هراس (١/٤٩ – ٥٠) ، ط/الثانية ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ .
(٥) انظر : مفتاح دار السعادة – ابن القيم ، تحقيق : سيد إبراهيم وعلي محمد (٢/٣٨٧) ، ط/الثالثة ، دار الحديث – القاهرة ١٤١٨هـ .

وقــد ســلك الــناس في هذا الباب في كل واد ، وأخذوا في كل طريق ، وتولجوا كل مضيق ، وركبوا كل صعب وذلول ، وقصدوا الوصول إلى معرفته من كل سبيل ، والوقوف على حقيقته ، وكلهم إلا من اهتدى بالوحـــي عن طريق الصواب مصدود ، وباب الهدى في وجهه مسدود ، قد قمش علماً غير طائل ، وارتوى من ماء آجن ، قد طاف على أبواب المذاهب ففاز بأخس الآراء والمطالب ، فرح بما عنده من العلم الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ، وقدَّم آراء من أحسن به الظن على الوحي المنزل المشروع ، والنص المرفوع ، حيران يأتم بكل حيران[١] .

ويؤكد ابن القيم أن القرآن وحده – لمن جعل الله له نورًا – أعظَمُ آية ودليل وبرهان على العقيدة ، وليس في الأدلة أقوى وأظهر دلالة منه[٢] .

ويبيّــن ابن القيم أن مدار العقيدة بشكل عام ، والقضاء والقدر بشكل خاص ؛ على الوحي والنص الشرعي ، فالقــرآن هو المصدر الأول ، والسنة هي المصدر الثاني ، وهي المفسرة الشارحة للقرآن ، فالهداية والنور فيهما ، واستنباط الأصول يكون منهما .

يقــول ابــن القيم : لما كان الكلام في هذا الباب نفياً وإثباتاً مداره على الخبر عن أسماء الله وصفاته وأفعاله وخلقه وأمره ، كان أسعد الناس بالصواب فيه من تلقى ذلك من مشكاة الوحي المبين ، ورغب بعقله وفطرته وإيمانـــه عن آراء المتهوكين ، وتشكيكات المتكلمين ، وتكلفات المتنطعين ، واستمطر دِيَمَ الهداية من كلمات أعلـم الخلــق بــرب العالمين ، فإنَّ كلماته الجوامع النوافع في هذا الباب وفي غيره كفت وشفت ، وجمعت وفرقتْ ، وأوضحتْ وبَيَّنتْ ، وحلت محلَّ التفسير والبيان لما تضمنه القرآن[٣] .

وممـــا تقــدم يتبيّــن بجــلاء أول خطوة في منهجية ابن القيم في الاستنباط ، وأنها قائمة على اعتماد النص الشــرعي وتقديمه وتعظيمه على ما سواه ، وأنه الأساس في استخراج واستنباط الأصول العقدية في القضاء والقدر وفي غيره من أصول العقيدة الإسلامية .

ثانياً : الاعتماد على النص الصحيح الثابت

الخطــوة الثانـــية في منهجية الاستنباط عند ابن القيم : الاعتماد على النص الصحيح الثابت ، كي يصح أن يكــون محلاً لاستنباط الأصول العقدية ، فابن القيم يعتمد على النص القرآني أولاً ؛ لأنه قطعي الثبوت كله ، ويعتمد بعده على السنة الثابتة الصحيحة ، هذا هو منهجه .

يقول :

كُنْ في أمورِكَ كلِّها مستمسكاً	***	بالوحي لا بزخارفِ الهَذَيانِ
واجعلْ كتابَ الله والسننَ التي	***	ثبتَتْ سلاحَكَ ثم صِحْ بِجَنَانِ[٤]

---

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٩-١٠) .

(٢) انظر : الصواعق المرسلة (٣/١١٩٩) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/١١) .

(٤) شرح القصيدة النونية – هراس (١/٤٩) .

وقــد ســلك ابن القيم في كتابه "**شفاء العليل**" هذا المنهج الثابت ، فهو يبدأ في عرض نصوص القرآن ، ثم يتبعها بنصوص السنة الصحيحة ، حتى إذا استوفى عرضه ، استنبط ما يشاء من هذه النصوص .

مثال على ذلك :

فابن القيم في الباب السابع المخصص للمرتبة الثانية وهي مرتبة الكتابة[1] ، يقول في مطلعه : (وقد تقدم في أول الكتاب ما دل على ذلك من نصوص القرآن والسنة الصريحة)[2] .

ثم يسرد الآيات القرآنية ، ثم الأحاديث المتفق عليها بين الإمام البخاري ومسلم ، ثم ما رواه أحدهما ، ثم ما رواه أصــحاب السنن والمسانيد ، هذا النمط والمنهج هو الغالب على كتابه "**شفاء العليل**" لأن عمدته النص الصحيح الثابت .

ولذلك يشنّع – رحمه الله – على أهل الأهواء والبدع ردّهم للنصوص الشرعية الثابتة ، فها هو يوبّخ المعتزلة بسبب ردهم لحديث "احتجاج آدم وموسى عليهما السلام" وهو نص صحيح ثابت ، يقول ابن القيم :

(هذا من ضلال فريق الاعتزال وجهلهم بالله ورسوله وسنته ، فإن هذا الحديث صحيح متفق على صحته ، لم تــزل الأمة تتلقاه بالقبول من عهد نبيها قرناً بعد قرن ، وتقابله بالتصديق والتسليم ، ورواه أهل الحديث في كتبهم وشهدوا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قاله ، وحكموا بصحته ، فما لأجهل الناس بالسنة ، ومن عرف بعدواتها ، وعداوة حملتها ، والشهادة عليهم بأنهم مجسمة ومشبهة حشوية نوابت، وهذا الشأن)[3].

فابــن القيم يضع النص الصحيح الثابت موضع الاعتماد والقبول والتسليم ، ويجعله أساساً لاستنباط الأصول الشرعية والعقدية[4] .

ثالثاً : الاعتماد على النص الصحيح في بيان النص وفهمه :

المنهجية الثالثة عند ابن القيم في الاستنباط هي الاعتماد على النص نفسه لبيان وفهم مراد النص الشرعي أو غيره من النصوص الشرعية .

والســبب أن صحة فهم النصوص الشرعية هي الركيزة الرئيسة لصحة الاستنباط والاستدلال ، ولا يستطيع المــرء أن يعرف مراد الله سبحانه ، ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم إلا حينما يستقيم فهمه لدلائل الكتاب والســنة ، وكثير من أصول البدع إنما حدثت بسبب سوء الفهم ، وانحرافه ، فصحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده[5] .

ولــذا كان منهج ابن القيم – رحمه الله – هو طلب معرفة معنى النص من القرآن نفسه ، إذ إنّ أحسن طريق لمعرفة مراد المتكلم ؛ الاستدلال ببعض كلامه على بعض ، حسب قواعد لغته التي يتكلم بها ، وهذا يقتضي معــرفة اللغــة التــي نزل بها القرآن الكريم ، ومعرفة أساليبها ، واستعمالاتها ، ولذلك فإن خير مبيّنٍ لنص القرآن هو القرآن نفسه .

---

(١) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢٤٤ – ٢٦٢) .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢٤٤) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٩٢) .

(٤) أقول : لابن القيم – رحمه الله – [illegible] عظيمة في تمحيص السنة والأحاديث ، وقد ألف في ذلك كتاباً خاصاً ، وهو : (المنار المنيف) .
انظر : المنار المنيف في الصحيح والضعيف – ابن القيم ، تحقيق : عبدالرحمن بن يحيى المعلمي ، عناية : منصور السماري ، ط/الثانية ، دار العاصمة – السعودية ١٤١٩هـ .

(٥) انظر : منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة – أحمد بن عبدالرحمن الصويان (ص ٤٨) ، ط/الثانية ، المنتدى الإسلامي ١٤٢٠هـ .

ومن أمثلة على منهج ابن القيم في بيان معنى النص القرآني من نص قرآني آخر ما يلي :

ففي الباب الخامس الذي عنوانه "**في ذكر التقدير الرابع : ليلة القدر**" استدل ابن القيم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾[1] ، على ليلة القدر التي هي التقدير الرابع، ولتأكيد هذا الاستدلال يقول ابن القيم :

(وهذه هي ليلة القدر قطعاً؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط)[2] .

ومثال آخر : فعند قوله تعالى: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾[3]، يقول ابن القيم : (وأنت إذا تأملتَ ارتباط إحدى هاتين الجملتين بالأخرى وجدتَ تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم؛ فأشار سبحانه بمبدأ خلقهم مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية ؛ وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سُدًى ، لا يرسل إليهم رسولاً ، ولا ينزل عليهم كتاباً ، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً ، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر ، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبوني ويكذبون رسلي ، ويعدلون بي خلقي وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم)[4] .

فإن لم يتيسر فهم النص القرآني من القرآن نفسه ، طلب ابن القيم تفسير وبيان النص من سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنها البيان الشافي والكافي للقرآن الكريم :

يقول ابن القيم : (أسعد الناس بالصواب فيه – أي القدر – من تلقى ذلك من مشكاة الوحي المبين ، ورغب بعقله وفطرته وإيمانه عن آراء المتهوكين ، وتشكيكات المتكلمين ، وتكلفات المتنطعين ، واستمطر دِيَمَ الهداية من كلمات أعلم الخلق برب العالمين؛ فإن كلماته الجوامع النوافع في هذا الباب وفي غيره كفت وشفت ، وجمعت وفرَّقت ، وأوضحتْ وبيَّنت ، وحلت محل التفسير والبيان لما تضمنه القرآن)[5] .

فمنهج ابن القيم – رحمه الله – هو الرجوعُ في بيان نصوص الوحيين إليهما؛ لأن ذلك بيان للوحي بالوحي وهما معصومان ، فبيانهما معصوم كذلك ، كما أن نصوص الوحيين قد اشتملت على كل ما يصح أن يطلق عليه مسمى عقيدة ، وبناء على ذلك فلا يكون عقيدة إلا إذا نُصَّ عليه فيهما أو أحدهما[6] .

رابعاً : الاستعانة بأقوال الصحابة والتابعين لفهم النص

المنهجية الرابعة عند ابن القيم في الاستنباط من النص : الاستعانة بأقوال الصحابة والتابعين لفهم وبيان وتفسير النص؛ فابن القيم يطلب بيان النص الشرعي من أقوال الصحابة – رضي الله عنهم – لأنهم أعلم

(١) سورة الدخان : آية (٣ – ٤) .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١٤٨/١) .

(٣) سورة المعارج : آية (٣٨ – ٣٩) .

(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢٣٠/١) .

(٥) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١١/١) .

(٦) انظر : منهج الاستدلال (٧٢/١ – ٧٥) ، تعريف الخلف بمنهج السلف (ص ٩٢ – ٩٣) .

بذلك ، لما شاهدوه من القرائن والأحوال ، واختصوا به من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعلم الصالح ، فالصحابة لهم منزلة جليلة ، فقد شرّفهم الله تعالى ، وأعلى منازلهم ، فكانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، ومن أجل هذا فإنّ دلائل الكتاب والسنة إنما تؤخذ من الصحابة رضي الله عنهم – ففيهم تكلم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعليه نزل القرآن ، فهم أعلم الناس بمراد الله سبحانه، ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم ، خاصة بعد أن كثرت البدع ، وافترقت الأمة ، وتنازع الناس ، وانتشرت الأهواء بين الطوائف[1] .

يقول ابن القيم بعد أن بيَّن أهمية الأخذ بنصوص الكتاب والسنة ، وتحدّث عن عظيم مكانة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

"ثم تلاه أصحابه من بعده على نهجه المستقيم ، وطريقه القيم ، فجاءت كلماتهم كافية شافية مختصرة نافعة ، لقرب العهد ، ومباشرة التلقي من تلك المشكاة التي هي مظهر كل نور ، ومنبع كل خير ، وأساس كل هدى"[2].

ولذلك كان ابن القيم – رحمه الله – يكثر في كتبه – وخاصة شفاء العليل – من الاستدلال والاستعانة بأقوال الصحابة ، ومن الأمثلة على ذلك أنه بعد عرض أحاديث ونصوص شرعية في القدر عقب عليه لبيانها جملة من أقوال الصحابة ، ثم قال بعد ذلك :

"وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ، ودقة أفهامهم ، وصحة علومهم ، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخلقية بالأسباب"[3] .

وكذلك كان ابن القيم يتخذ من فهم الصحابة – رضي الله عنهم – منهجاً في الفهم والبيان والتفسير ، من أجل استنباط الأصول العقدية ، نجده يقدم أقوال الصحابة على من عداهم لأنهم يفضلون غيرهم في كل الصفات والمدارك المشتركة التي عليها المدار في ترجيح الأقوال والاستنباط فالصحابة أعمق الناس علماً ، وأصحه فهماً ، كما أنهم أقرب إلى أن يوفَّقوا في دلالات الألفاظ والأقيسة لما ميزهم الله به عن غيرهم ، وخصهم به ، من سعة العلم ، وصحة الفهم ، وتوقد الأذهان ، وسهولة الأخذ ، وسرعة الإدراك ، وحسن العهد ، واتباع السنة[4] .

فإن لم يجد ابن القيم في أقوال الصحابة ما يعينه على فهم المراد من النص ، رجع إلى أقوال التابعين لأنهم أقرب الناس عهداً بالصحابة ، وأكثرهم فهماً لهم ، وأوسعهم نقلاً عنهم .

---

(١) يقول ابن تيمية : "يحتاج المسلمون – في باب العقيدة – إلى شيئين :
أحدهما : معرفة ما أراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ألفاظ الكتاب والسنة ، بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل ، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ ، فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرّفهم ما أراد بتلك الألفاظ ، وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه ، وقد بلغوا تلك المعاني إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه" .
مجموع الفتاوى (١٧ / ٣٥٣) .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/١١) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/١٧٢) .

(٤) انظر : مختصر الصواعق المرسلة (ص ٥١٦ – ٥١٩) ، منهج التلقي والاستدلال (ص ٥٠ – ٥١) ، منهج الاستدلال (١/٧٦) .

يقـــول ابن القيم : (ثم سلك على آثارهم التابعون لهم بإحسان ، فاقتفوا طريقهم ، وركبوا منهاجهم ، واهتدوا بهداهم ، ودعوا إلى ما دعوا إليه ، ومضوا على ما كانوا عليه)[٥] .

خامساً : استقصاء وتدقيق معاني الألفاظ

اهتم ابن القيم كثيراً بمسألة الألفاظ والمصطلحات استقصاءً وتدقيقاً لأنه – رحمه الله – يعلم أن أصل بلاء أكـثر الـناس إنما هو من جهة الألفاظ المجملة ، والمعاني المبهمة وعليه فلا بد من منهجية واضحة لبيان ألفـاظ الـنص ومعانـيها ومدلولاتها ، فكان منهج ابن القيم المتميز في الألفاظ القائم على : الاستقصاء ، ثم الاستفصال ، ثم التدقيق ، ثم النقد والتقويم[١] .

سادساً : جمع الروايات واستقصاء طرقها ومدلولاتها

ومـــن منهجية ابن القيم في الاستنباط : جمع الروايات المتعددة في الموضوع الواحد ، وتمحيصها وتدقيقها، للوصول بمجموعها إلى مدلول واضح بين وذلك لأن النصوص الشرعية وحدة واحدة يكمل بعضها بعضاً، فـلا تتضح المسألة حتى تستوفي جميع النصوص الواردة فيها فالنصوص الثابتة تأتلف ولا تختلف ، فكلها خرجـت مـن مشـكاة واحدة ، ولا يمكن أن يرد التناقض بينها أو الاختلاف ، ولهذا السبب كان الاستدلال والاستنباط الصحيح يقوم على جمع النصوص في الموضوع الواحد وتدقيق معانيها فإنها ولا شك تؤدي الى حقـيقة واحـدة ولذلـك كان منهج أهل الأهواء الأخذ بنص وترك الآخر مما يؤدي إلى تقطيع النصوص وبترها، وتحريف معانيها ، والعبث في مدلولاتها .

ومن الأمثلة على ذلك عند ابن القيم :

أنـه فـي موضـوع التقدير الثالث وهو "التقدير والجنين في بطن أمه" جمع النصوص في هذا الموضوع ، وتوصل بمجموعها إلى حقيقة واحدة

يقـول : (فاجتمعـت هذه الأحاديث والآثار على تقدير رزق العبد وأجله وشقاوته وسعادته وهـو في بطن أمـه)[٢]

ثـم بعـد ذلـك يظهر من بعض ألفاظ الروايات الاختلاف في وقت هذا التقدير ولكن ابن القيم بعد جمعها وتحليلها وتدقيقها يصل بها إلى نتيجة واحدة متفقة

يقـول : (فاتفقـت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصدق بعضها بعضاً ، ودلت كلها على إثبات القـدر السـابق ومراتـب التقدير ، وما يُؤتَى أحدٌ إلا مِنْ غلط في الفهم أو غلط في الرواية ، ومتى صحت الرواية وفهمت كما ينبغي تبيَّن أن الأمر من مشكاة واحدة صادقة متضمنة لنفس الحق)[٣] .

سابعاً : معرفة اللغة العربية

---

(٥) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/١١) .

أقول : من الأمثلة على استدلال ابن القيم بأقوال التابعين لفهم النص ، ما ذكره ابن القيم للتدليل على التقدير ومراتبه ، وهذا كثير في كتابه هذا .

انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/١٤٨ – ١٥٢) .

(١) انظر : المبحث الأول من هذا الفصل للمزيد .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/١٤٥) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/١٤٦) .

ولكي تفهم دلائل الكتاب والسنة على الوجه الصحيح ، وليصح منهما الاستنباط ، لا بد من معرفة لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم ، والتي خاطب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ؛ ولذلك اهتم علماء الإسلام قاطبة – ومنهم ابن القيم – بلغة الوحي ، فهماً ، ودراسة ، وتعمقاً في علومها وأساليبها وفنونها ؛ لأن اللغة خادمة النص ، والوسيلة إلى فهمه ودلالته .

ومن الأمثلة على اهتمام ابن القيم باللغة العربية والاستعانة بها لفهم المراد من النص ودلالته ومعانيه على وجه الصواب ؛ ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[1] ؛

حيث استدل بها على علم الله وإرادته واختياره سبحانه ، يقول :

((أي : هو سبحانه المنفرد بالخلق والاختيار مما خلق ، وهو الاصطفاء والاجتباء ؛ ولهذا كان الوقف التام عند قوله : "ويختار" ثم نفى عنهم الاختيار الذي اقترحوه بإرادتهم ، وأن ذلك ليس إليهم ، بل إلى الخلاق العليم الذي هو أعلم بمحال الاختيار ومواضعه ... ومن زعم أنّ "ما" مفعولُ "يختار" فقد غلط ؛ إذ لو كان هذا هو المراد لكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر "كان" ، ولا يصح أن يقال : المعنى : ما كان لهم الخيرة فيه وحذف العائد ؛ فإنّ العائد هاهنا مجرور بحرف لم يُجَرّ الموصولُ بمثله ، فلو حذف مع الحرف لم يكن عليه دليل ؛ فلا يجوز حذفه ، وكذلك لم يَفْهَمْ معنى الآية مَنْ قال : إنّ الاختيار هاهنا هو الإرادة كما يقول المتكلمون : إنه سبحانه فاعل بالاختيار ؛ فإن هذا الاصطلاح حادث منهم ، لا يحمل عليه كلام الله ، بل لفظ الاختيار في القرآن مطابق لمعناه في اللغة ، وهو اختيار الشيء على غيره ، وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه على غيره ، وهذا أمر أخص من مطلق الإرادة والمشيئة ؛

قال في الصحاح : الخِيَرَةُ : الاسم من قولك : خار الله لك في هذا الأمر ، والخيرة أيضاً يقول : محمدٌ خِيَرَةُ الله من خلقه ، وخِيْرَةُ الله أيضاً بالتسكين . والاختيار : الاصطفاء ، وكذلك التخير ، والاستخارة : طلب الخِيَرَة، يقال : استخِرِ اللهَ يَخِرْ لك ، وخيَّرته بين الشيئين : فَوَّضْتُ إليه الخيار انتهى[2] ؛

فهذا هو الاختيار في اللغة ، وهو أخص مما اصطلح عليه أهل الكلام ... وبهذا يحصل جواب السؤال الذي توردُه القدرية ، وهو ما يقولون في الكفر والمعاصي ، هل هي واقعة باختيار الله أم بغير اختياره ؟ فإن قلتم : باختياره ، فكل مختار مرضيٌّ مصطفًى محبوبٌ ، فتكون مرضية محبوبة له ، وإن قلتم : بغير اختياره ، لم يكن بمشيئته واختياره . **وجوابه أن يقال** : ما تعنون بالاختيار ؟ تعنون به : الاختيار العام في اصطلاح المتكلمين ، وهو المشيئة والإرادة ؟ أم تعنون به : الاختيار الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العرب ؟ فإن أردتم بالاختيار الأول ، فهي واقعة باختياره بهذا الاعتبار ، ولكن لا يجوز أن يطلق ذلك عليها ؛ لِمَا في لفظ الاختيار من معنى الاصطفاء والمحبة ، بل يقال : واقعة بمشيئته وقدرته ، وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب ، فهي غير واقعة باختياره بهذا المعنى وإن كانتْ واقعة بمشيئته))[3] .

(١) سورة القصص : آية (٦٨ – ٦٩) .

(٢) انظر : الصحاح – الجوهري ، تحقيق : أحمد عبدالغفور عطار (٢/٦٥٢) ، ط/ الثالثة ، دار العلم للملايين – بيروت ١٤٠٤هـ .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢١٠ – ٢١٣) . وانظر : نفس المصدر (١/٣٢٨ – ٣٢٩) .

ويقول ابن القيم مبيناً التأويل الفاسد :

ثامناً : عدم تأصيل ما يخالف أصول الشريعة

ومن منهجية ابن القيم في استنباط الأصول من النص الشرعي عدم تأصيل ما يخالف أصول الشريعة لأن التأصيل المضاد للنص هو مِنْ أعظم أسباب العبث والتحريف والتبديل للنصوص الشرعية عند أكثر طوائف أهــل الأهــواء والــبدع فكانت تلك الأصول العقلية ونحوها هي أصل الضلال في موقفهم من النصوص الشرعية والاستنباط منها .

يقول ابن القيم مبيناً أهم شرط في سلامة فهم نصوص الكتاب والسنة :

وكفايةُ النَّصَّيْنِ مشروطٌ بتجر *** يدِ التلقِّي عنهما لمعانِ

وكذاك مشروطٌ بخلْعِ قيودِهِمْ *** فقيودُهُمْ غُلٌ إلى الأذقانِ

وكذاك مشروطٌ بهدمِ قواعدٍ *** ما أُنْزِلَتْ ببيانها الوحيانِ

وكذاك مشروطٌ بإقدامٍ على *** إنْ عَرِيَتْ عن البرهانِ

بالردِّ والإبطالِ لا تعبأْ بها *** شيئاً إذا ما فاتها النصَّانِ

لولا القواعدُ والقيودُ وهذه *** الآراءُ لاتسعتْ عرى الإيمانِ

لكنها واللهِ ضَيَّقَتِ العرى *** فاحتاجَتِ الأيدي لذاك توا

وتعطَّلَتْ من أجلها واللهِ *** دادٌ من النصَّيْنِ ذاتُ بيانِ

وتضمَّنَتْ تقييدَ مطلقها *** قَ المقيَّدِ وَهْوَ ذو ميزانِ

وتضمَّنَتْ تحليلَ ما قَدْ حَرَّ *** وعكسَهُ النوعانِ

وتضمنتْ أيضاً موانعَ لم تكنْ *** ممنوعةً شرعاً بلا تبيانِ

إلا بأقيسةٍ وآراءٍ *** بلا علمٍ ولا استحسانِ

عمن أتتْ هذه القواعدُ من *** الصحبِ والأتْبَاعِ بالإحسانِ

ما أسسوا إلا اتباعَ نبيِّهِمْ *** لا عَقْلِ فَلْتَانٍ ورأيِ فلانِ

هذا وليس الطعنُ بالإطلاق *** كلِّها فِعْلَ الجهولِ الجاني

بل في التي قد خالفَتْ قولَ الرسو *** لِ ومُحْكَمَ الإيمانِ والفرقانِ

أو في التي ما أَنْزَلَ الرحمنُ في *** تقريرِها يا قومُ مِنْ سلطانِ

فهي التي كم عَطَّلَتْ من سُنَّةٍ *** بل عطلتْ من مُحْكَمِ القرآنِ[1]

فهــنا يبيّــن ابــن القيم – رحمه الله – شروطَ كفاية النصين في الفهم والاستدلال والاستنباط ؛ وهي ثلاثة : **أحدها:** تجريدُ التلقي عن الكتاب والسنة ، وعدمُ الالتفات إلى غيرهما واتباعُهُمَا وتركُ ما سواهما **والثاني :** خلع القيود التي توهن الانقياد **والثالث :** هدم القواعد المؤسسة على الفساد والبطلان ، والأمور التي ما أنزل

مـا لم يؤلف استعماله في ذلك المعنى في لغة المخاطب ، وإن ألف في الاصطلاح الحادث ، وهذا موضع زلت فيه أقدام كثير من الناس ، وضلت فيه أفهامهم ، حيث تأولوا كثيراً من ألفاظ النصوص بما لم يؤلف استعمال اللفظ له في لغة العرب البتة ، وإن كان معهوداً في اصطلاح المتأخرين ، وهذا مما ينبغي التنبه له فإنه حصل بسببه من الكذب على الله ورسوله ما حصل . الصواعق المرسلة (١/١٨٩) .

(١) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيد الإمام ابن القيم – أحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/٣٨٩–٣٩٢) ، ط/الثالثة ، المكتب الإسلامي – بيروت ودمشق ١٤٠٦هـ.

الله بها من سلطان ، العارية عن الدليل والبرهان ، وأنها سبب الفساد والتحريف والتعطيل الذي أصاب نصوص الوحي .

يقول ابن القيم مبيناً حال أهل البدع مع النص :

(ولم يزل أهل الكلام الباطل المذموم موكلين برد أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تخالف قواعدهم الباطلة ، وعقائدهم الفاسدة ، كما ردوا أحاديث الرؤية ، وأحاديث علو الله على خلقه ، وأحاديث صفاته القائمة به ، وأحاديث الشفاعة ، وأحاديث نزوله إلى سمائه ، ونزوله إلى الأرض للفصل بين عباده ، وأحاديث تكلُّمه بالوحي كلاماً يسمعه من شاء من خلقه ، حقيقة ، إلى أمثال ذلك ، وكما ردت الخوارج والمعتزلة أحاديث خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة وغيرها ، وكما ردت الرافضة أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة ، وكما ردت المعطلة أحاديث الصفات والأفعال الاختيارية ، وكما ردت القدرية المجوسية أحاديث القضاء والقدر السابق)[1] .

ثم يبيِّن ابن القيم أصل وسبب ضلال هؤلاء ، وهو في تأصيل القواعد المخالفة للنص ، والتي حتماً ستضطرهم للعبث والتحريف بالنصوص الشريعة ؛

يقول : (وكل من أصَّل أصلاً لم يؤصِّله الله ورسوله قاده قسراً إلى رد السنة وتحريفها عن مواضعها ؛ فلذلك لم يؤصِّل حزب الله ورسوله أصلاً غير ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فهو أصلهم الذي عليه يعولون ، وآخيَّتهم التي إليها يرجعون)[2] .

ويضرب ابن القيم على ذلك بعض الأمثلة ، ومنها :

مسألة "الهداية والضلال" في القرآن وكيف حرَّفها وعبث بها المعتزلة بأنواع التحريفات ، كي تتوافق مع أصولهم العقلية ، وأهمها أصلهم المسمى "**بالعدل الإلهي**" ، فحرَّف هؤلاء نصوص القرآن كي تتوافق وتتماشى مع أصلهم الذي أصلوه بعقولهم !

يقول ابن القيم بعد أن عرض جملة من الآيات المتضمنة للهداية والضلال ، وموقف المعتزلة منها : (ففي أي لغة وأي لسان يفهم من هذا علمنا بعلامة الثبات والتصريف على طاعتك ؟ وفي أي لغة يكون معنى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً ﴾[3] علَّمناها بعلامة القسوة أو وجدناها كذلك ؟

نعم لو نزل القرآن بلغة القدرية والجهمية وأهل البدع لأمكن حمله على ذلك ، أو كان الحق تبعاً لأهوائهم ، وكانت نصوصه تبعاً لبدع المبتدعين وآراء المتحيرين ، وأنت تجد جميع هذه الطوائف تنزِّل القرآن على مذاهبهم وبدعها وآرائها ؛ فالقرآن عند الجهمية جهمي ، وعند المعتزلة معتزلي ، وعند القدرية قدري ، وعند الرافضة رافضي ، وكذلك هو عند جميع أهل الباطل ، وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وأما تحريفهم هذه النصوص وأمثالها بأن المعنى ألفاهم ووجدهم ، ففي أي لسان وأي لغة وجدتم ؛

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٩٣ – ٩٤) .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٩٤) .

(٣) سورة المائدة : آية (١٣) .

هديتُ الرجلَ: إذا وجدتُّهُ مهتدياً ، وختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة : وجَدَهُ كذلك ، وهل هذا إلا افتراء محض على القرآن واللغة[1] .

تاسعاً : استنباط الأصول العقدية من النص

بعـد أن قـرّر ابـن القـيم خطواته المنهجية السابقة وهي : تعظيم النص وتقديمه ، والاعتماد على النص الصـحيح، واستقصـاء ألفاظ النص ورواياته ، والاستعانة بأقوال الصحابة والتابعين لفهم النص ، واستخدام علـوم اللغـة لبـيانه ، مـع عدم تأصيل الأصول العقلية أو المذهبية التي تضاد النص ، بعد تلك الخطوات المنهجية يشرع ابن القيم في استنباط ما يراه أصولاً مهمة في العقيدة من النص .

ومنهج ابن القيم هذا يُعَدُّ منهجاً متميزاً خالف فيه مناهجَ المدرسة الكلامية والعقلية ، التي كانت تتخذ المسائل أسـاس بحثها ، وهذا خلاف منهج ابن القيم – ومدرسته – الذي اتخذ النص أساس بحثه ، حيث كان يعرض النصوص الشرعية ثم يستنبط منها الأحكام والأصول ، وطريقة ابن القيم – رحمه الله – هي عرض وإبراز نصوص الكتاب والسنة وفق خطواته المنهجية السابقة ، ثم استنباط الأحكام والأصول الشرعية منها بأسلوب سـهل مبسط خال من التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي ، متطلباً التأصيل والتقعيد من قول الله تعالى ، وقول رسـوله صـلى الله عليه وسلم ، طالباً رد الناس إلى منابع الشريعة الأولى خالية من كل تحريف وتأويل ، خالصة من كل شائبة ، وهذا منهج أصيل في عامة كتبه[2] .

ولهذا كان النص هو المنطلق للحكم والتأصيل عند ابن القيم ، ولم تكن المسائل أو التأصيلات العقلية السابقة هـي المـنطلق كمـا عليه حال المدرسة العقلية الكلامية ، فالنص هو الأساس في المسألة ، وهو المنطلق في التأصـيل والاسـتدلال والمناقشـة ، فيسـتنبط الأصول ، والأدلة ، والردود ، والفوائد الجليلة ، والأسرار العظيمة، من النص وحده ، وفي هذا أكبر برهان على الجهد العظيم الذي بذله ابن القيم في عملية الاستنباط ، يسـاعده حِـسٌّ فطري في استكشاف بلاغة وإعجاز النص الشرعي ، وإدراك عميق بدلالة الكلام والألفاظ ومفهومها[3] .

وابـن القيم يبيِّن أن سبب حرمان أهل الأهواء من أسرار وفوائد النص ، أصلهم الفاسد ، وهو جعل أقوالهم الـتي ابـتدعوها أصول دينهم المحكمة ، وجعلوا نصوص الوحي هي المتشابه ، ثم ردوا متشابه الوحي إلى محكم قواعدهم وكلامهم ، ولذا وقعوا في التحريف والتزييف[4] .

---

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٤٤٤ – ٤٤٥) .

يقول ابن القيم عند قوله تعالى : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ ما نصه : ولهـذه الآية شأن فوق عقولنا ، وأجل من أفهامنا ، وأعظم مما قال فيها المتكلمون الذين ظلموها معناها وأنفسهم كانوا يظلمون ، تالله لقد غلظ عنها حجابهم ، وكثفت عنها أفهامهم ، ومنعـتهم مـن الوصول إلى المراد بها أصولهم التي أصلوها وقواعدهم التي أسسوها ، فإنها تضمنت إثبات التوحيد والعدل الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه ، لا التوحيد والعدل الذي يقوله معطلو الصفات ونفاه القدر ، وتضمنت إثبات الحكمة والقدرة ، والشرع والقدر ، والسبب والحكم ، والذنب والعقوبة ، ففتحت للقلب الصحيح باباً واسعاً من معرفة الرب تعالى بأسمائـه وصفات كماله ونعوت جلاله ، وحكمته في شرعه وقدره ، وعدله في عقابه ، وفضله في ثوابه ، وتضمنت كمال توحيده وربوبيته وقيوميته وإلهيته ، وأن مصادر الأمور كلها عن محض إرادته ومردها إلى كمال حكمته . شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٥٤٤ – ٥٤٥) .

(٢) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ٤٩) ، ابن قيم الجوزية سيرته منهجه وآراؤه في الإلهيات (ص ٣٩ – ٤٠) .

(٣) انظر : ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن – د. عبدالفتاح لاشين (ص ١٩٦ – ١٩٧) ، ط/الأولى ، دار الرائد العربي – بيروت ١٤٠٢هـ .

(٤) انظر : الصواعق المرسلة (٣/٩٩٠) .

ثــم يبيّــن ابن القيم أن منهج المدرسة السلفية خلاف منهج أهل الأهواء وعكسه؛ حيث إنهم يجعلون الأصل الذي يعتمد عليه هو النص؛ فالنصوص هي المحكمة الفاصلة ، ونصوص الوحي عندهم أعظم وأكبر من أن يقدموا عليها أصولاً عقلية أو ألفاظاً مجملة؛ لأن ما جاء به الوحي هو الهدى والحق ، وما خالفه وعارضه فهو باطل شرعاً ولغة وعقلاً[1]؛

ولذلك لمّا وجد أهلُ الأهواء أنّ أصولهم لا سبيل لاستنباطها من النص ؛ عمدوا إلى رده والاعتراض عليه ، والعبث به وتشويهه؛ كي يتسنى لهم الاستدلالُ به[2] .

ولكي أرسم صورة واضحة لمنهجية ابن القيم في استنباط الأصول من النص؛ أقول :

إن المتتــبع لما كتبه ابن القيم يرى بوضوح أنه اعتمد أولاً على النص؛ ولذلك نجده يكثر من عرض الأدلة والنصــوص في المسألة الواحدة ، لفظاً ورواية ، وقد ساعده على ذلك درايته الكبيرة بالأحاديث ، مع عقل راجــح استخدمه في تمحيص المعاني والمدلولات ، مع تفوق وتعمق في علوم الآلة كاللغة والأصول والبيان والبلاغة ، مع استيعاب شامل لأقوال السلف الصالح ، فيعرض هذا كله للمساهمة في تفسير معنى النص[3].

ويمكن تلخيص منهجيته في الاستنباط ؛ كالتالي :

(١) تقديم وتعظيم النص ، وجعله الأساس والأصل الأول للاستنباط .

(٢) التدرج في عرض النصوص ؛ كالتالي :

- نصوص القرآن أولاً .
- الأحاديــث المتفق عليها بين الإمام البخاري والإمام مسلم – إن وجد – ثم الأحاديث التي تفرد بها أحدهما .
- الأحاديث الصحيحة التي وردت في السنن والمسانيد .
- الأحاديث الأقل صحة .

(٣) عرض أقوال الصحابة، ثم أقوال التابعين، ثم أتباع التابعين .

(٤) تمحيص الألفاظ ، ومقارنة الروايات .

(٥) استخراج الأدلة والمعاني والأصول من النص .

ومما تقدّم تتبيّن خطوات منهج ابن القيم في استنباط الأصول من النص الشرعي؛ فالتأصيل عنده ينطلق في الأســاس مــن الــنص؛ لأنه هو منبع وأساس التأصيل، ولا تأصيل من غيره، لا من العقل ولا من النظر أو الذوق؛ إنما التأصيل هو ما أصّله الله في كتابه الكريم، ونبيه صلى الله عليه وسلم في سنته الطاهرة؛

(١) انظر : الصواعق المرسلة (٩٩١/٣ – ٩٩٢) .

(٢) انظر : منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة (ص ٦٣) .

(٣) انظر :

- ابــن قيم الجوزية عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف – د. عبدالعظيم عبدالسلام شرف الدين (ص ١٧٩ – ١٨١) ، ط/الثانية ، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة ١٣٨٧هـ .
- ابــن قــيم الجوزيــة وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها – جمال محمد السيد عبدالحميد (١٥٣/١) ، رسالة دكتوراه بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، شعبة السنــة ١٤١١هـ .

يقول : (وكل من أصل أصلاً لم يؤصّله الله ورسوله قاده قسراً إلى رد السنة وتحريفها عن مواضعها؛ فلذلك لم يؤصّل حزبُ الله ورسوله أصلاً غير ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو أصلهم الذي عليه يعولون، وآخيّتهم التي إليها يرجعون)(1).

واتخاذ ابن القيم مبدأ التأصيل من النص وحده في كتابه "شفاء العليل" وغيره دليل عنايته بالنصوص الشرعية واحترامها وتقديمها وجعلها الأساس الذي يرجع إليه الناس، ويتحاكمون إليه دون سواه؛ لأنه منبع الهداية والنور.

ولذا كان أصلُ ضلال الطوائف والفرق إنما هو بسبب أصولها التي لم تستنبط من النص، ولم يكن مبدأ التأصيل عندهم تابع من النص الشرعي، بل كان التأصيل عندهم قائم على عقولهم وأقوالهم المبتدعة والتي ما أنزل الله بها من سلطان، فأصبحتْ هذه الأصول المخترعة هي الأساس الذي تحاكم به نصوص الوحي، فتُرد أو تُقبل تبعاً لموافقتها أو مخالفتها لأصولهم العقلية التي أسسوها في غياب النص الشرعي؛ فضلوا وأضلوا، ولو اعتمدوا على النص لاهتدوا.

يقول ابن القيم : (فلو أعطيت النصوص حقها؛ لارتفع أكثر النزاع من العالم، ولكن خفيت النصوص، وفُهِمَ منها خلاف مرادها، وانضاف إلى ذلك تسليط الآراء عليها واتباع ما تَقْضِي به، فتضاعف البلاء، وعظم الجهل، واشتدت المحنة، وتفاقم الخطب، وسبب ذلك كله الجهل بما جاء به الرسول، وبالمراد منه، فليس للعبد أنفع من سمع ما جاء به الرسول وعقل معناه)(2).

وفي ختام هذا المبحث الخاص بالنص الشرعي وجعله أساس التأصيل والاستنباط، سوف أعرض - بمشيئة الله - بعض النماذج المنهجية التأصيلية والاستنباطية التي سلكها ابن القيم في كتابه "شفاء العليل" تجاه النص؛ فمن تلك النماذج المنهجية ما يلي :

النموذج الأول : (الاستنباط والتأصيل من النص القرآني)

ففي كتاب "شفاء العليل" يكثر ابن القيم من الاستدلال بالآيات القرآنية؛ إذ عليها يعتمد، وبها يستدل، ومنها يستنبط ، وعلى ضوئها يؤصّل ويؤسّس، وليس هناك مسألة صغيرة أو كبيرة إلا واستدل عليها بآية من كتاب الله، ولا ناقش طائفة ولا رد عليها إلا وهو يقدّم الآيات على غيرها، فهي الأصل عنده في التأسيس والهدم.

ومن الأمثلة على اعتماده على النص القرآني في التأصيل والرد والاستنباط ما يلي :

(1) قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾(3)

فعند هذه الآية - ومثيلاتها - يبيّن ابن القيم أنها تتضمّن الرد على طائفتي الضلال: نفاة المشيئة بالكلية "الفلاسفة"، ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم "المعتزلة"؛ لأنه سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة أنّ ما لم يشأ لم يكن، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء لما عُصِيَ، وأنه لو شاء لجَمَعَ خلقه على الهدى وجعلهم أمة

(1) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (1/94) .
(2) مفتاح دار السعادة (2/387) .
(3) سورة الأعراف : آية (155) .

واحـدة؛ فالمشـيئة مشيئته سبحانه، مشيئته لهذا العالم كله، ومشيئته لأفعال عباده من هدى وضلال، فالهادي والمضل هو الله وحده[1] .

فتضـمنت هذه الآية أصلاً من أصول العقيدة هو: إثبات المشيئة العامة لكل شيء، لا يستثنى من ذلك أفعال العباد؛

يقول ابن القيم: (فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معـنى كونه رب العالمين، وكونه القيوم القائم بتدبير عباده؛ فلا خلق ولا رزق ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسـط ولا مـوت ولا حـياة ولا إضلال ولا هدى ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه، إذ لا مالك غيره، ولا مدبر سواه، ولا رب غيره)[2] .

(٢) قوله تعالى : ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[4]

ومن هاتين الآيتين يستنبط ابن القيم ما يلي :

أن الصـبر والتوفيق فعل اختياري للعبد، وقد أخبر الله سبحانه أنه به لا بالعبد، وهذا لا ينفي أن يكون فعلاً للعـبد حقيقة، ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه، وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعاً به، وإنما هو بالخالق لكل شيء، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فالتصبير منه سبحانه، وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد وهو فعله[5] .

ويبيّن ابن القيم أن الآية الثانية تضمنت أصولاً مهمة، منها :

أولاً: قولهـم: " أفـرغ علينا صبراً " والصبر فعلهم الاختياري؛ فسألوه ممن هو بيده وبمشيئته وإذنه، إن شاء أعطاهموه، وإن شاء منعهموه.

ثانـياً: قولهـم: "وثبت أقدامنا" وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكنّ التثبيت فعله، والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

ثالثاً: قولهم: "وانصرنا على القوم الكافرين" هنا سألوه النصر، وذلك بأن يقوّي عزائمهم، ويشجّعهم، ويصبّرهم، ويثبّـتهم، ويلقـي فـي قلوب أعداءهم الخور، والخوف والرعب، فيحصل النصر، وأيضاً: فإن كون الإنسان منصـوراً علـى غيره: إما أن يكون بأفعال الجوارح، وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم، وذلك أيضاً فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده، وأثنى على من طلبه منه، وكل ما تقدم يتناقض مع أصول القدرية؛ لأن ذلك عندهم لا يدخل تحت مقدور الرب.

(١) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢٧٠) .
(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢٧٠ – ٢٧١) .
(٣) سورة النحل : آية (١٢٧) .
(٤) سورة البقرة : آية (٢٥٠ – ٢٥١) .
(٥) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٣٦٩) .

رابعاً: قوله "فهزموهم بإذن الله" فإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري، أي بمشيئته وقضائه وقدره، وليس هو الإذن الشرعي الذي هو بمعنى الأمر فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني فإن المأمور الكوني لا يتخلف عنه ألبتة[1].

فهنا استنبط ابن القيم أصولاً عظيمة في القدر، منها : أن للعبد اختياراً وحرية في أفعاله، وأن الله خالق أفعال العباد، كما تضمنت الإذن الشرعي والكوني، والأمر الشرعي والكوني.

(٣) قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[2]

فمن هذه الآية يستنبط ابن القيم هذه الأصول والفوائد العظيمة ، ومنها :

أولاً: تنبيه أمة الإسلام على أن رسول الله الذي شهد له بالرسالة إذا أصابه ما يكره فمن نفسه فما الظن بغيره.

ثانياً: أن حجة الله قد قامت عليهم بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم، فإذا أصابهم سبحانه بما يسوءهم لم يكن ظالماً لهم في ذلك لأنه قد أرسل رسوله إليهم يعلمهم بما فيه مصالحهم وما يجلبها لهم، وما فيه مضرتهم وما يجلبها لهم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه.

ثالثاً: أن الكفار أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتها حجة على إبطال رسالته فشهد له بالرسالة ، وأخبر أن شهادته كافية، فكان في ضمن ذلك إبطال قولهم أن المصائب من عند الرسول صلى الله عليه وسلم وإثبات أنها من عند أنفسهم بطريق الأولى[3].

رابعاً: إبطال قول الجهمية المجبرة ومن وافقهم في قولهم: إن الله قد يعذّب العباد بلا ذنب.

خامساً: إبطال قول القدرية الذين يقولون: إن أسباب الحسنات والسيئات ليست من الله بل هي من العبد.

سادساً: إثبات الأسباب، وإبطال قول من ينفيها ولا يرى لها ارتباطاً بمسبَّباتها.

سابعاً: أن الخير كله من الله والشر كله من النفس فإن الشر هو الذنوب وعقوبتها، والذنوب من النفس، وعقوباتها مترتبة عليها، والله هو الذي قدّر ذلك كله وقضاه، وكلٌّ من عنده قضاءً وقدراً وإن كانت نفس العبد سببَه، بخلاف الخير والحسنات فإن سببها مجرد فضل الله ومنه وتوفيقه.

ثامناً: أنه سبحانه لما رد قولهم: إن الحسنة من الله والسيئة من رسوله وأبطله بقوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ دفع وَهْمَ من توهّم أن نفسه لا تأثير لها في السيئة ولا هي منها أصلاً بقوله: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ وخاطبه بهذا تنبيهاً لغيره.

تاسعاً: أنه قال في الرد عليهم ﴿قل كل من عند الله﴾ ولم يقل من الله لما جمع بين الحسنات والسيئات، والحسنة مضافة إلى الله من كل وجه، والسيئة إنما تضاف إليه قضاءً وقدراً وخلقاً، وأنه خالقها كما هو خالق الحسنة فلهذا قال: ﴿قل كل من عند الله﴾ وهو سبحانه إنما خلقها لحكمة فلا تضاف إليه من جهة كونها

(١) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٣٦٩ – ٣٧٠) .

(٢) سورة النساء : آية (٧٩) .

(٣) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧٥٦) .

سيئة، بل من جهة ما تضمّنته من الحكمة والعدل والحمد، وتضاف إلى النفس كونها سيئة، ولمّا ذكر الحسنة مفردة عن السيئة قال: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ ولم يقل من عند الله، فالخير منه وإليه موجب أسمائه وصفاته، والشر الذي هو بالنسبة إلى العبد شر من عنده سبحانه فإنه مخلوق له خلقه عدلاً منه وحكمة، ثم قال: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ ولم يقل من عندك لأن النفس طبيعتها ومقتضاها ذلك فهو من نفسها، والجميع من عند الله فالسيئة من نفس الإنسان بلا ريب، والحسنة من الله بلا ريب، وكلاهما من عنده سبحانه قضاءً وقدراً وخلقاً، ففرقٌ بيّنَ ما مِنَ الله وبين ما مِنْ عنده، والشر لا يضاف إلى الله إرادةً ولا محبةً ولا فعلاً ولا وصفاً ولا اسماً، فإنه لا يريد إلا الخير ولا يحب إلا الخير ولا يفعل شراً ولا يوصف به ولا يسمى باسمه[1].

وهنا نجد ابن القيم قد بيّن أن الآية الكريمة قد استوعبتْ أعظم أصول القضاء والقدر، من مسألة أفعال العباد، والاحتجاج بالقدر، وقضية السببية، ومسألة الظلم، حتى قضية وجود الشر.

فالآية الكريمة تضمنت أصولاً عظيمة منها:

أن السيئات من الإنسان باختياره وإرادته ، وفي ذلك إبطال زعم الجبرية والأشاعرة أن نفس الإنسان لا تأثير لها في السيئة الحسنة ، كما تضمنت تنزيه الله عن الظلم والجور، وإبطال الاحتجاج بالقدر، وإبطال زعم الجهمية والأشاعرة أن الله قد يعذب العباد بلا ذنب، وإبطال زعم القدرية أن أفعال العباد ليست من الله بل هي من العبد، وإثبات الأسباب وإبطال زعم من ينفيها ولا يرى لها ارتباطاً بمسبَّباتها، إثبات أن الخير كله من الله والشر كله من النفس، والله هو الذي قدّر الخير والشر وقضاه، وكلٌّ من عنده قضاءً وقدراً، ولكن الشر لا يضافُ إلى الله .

النموذج الثاني : (الاستنباط والتأصيل من الحديث الشريف)

وبجانب استدلال ابن القيم بالآيات القرآنية واستنباطه منها، نجده يتبعها بالأحاديث النبوية ويستنبط منها – أيضاً– أصولاً عظيمة ، ومن ذلك :

(١) قول النبي صلى الله عليه وسلم :

﴿المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعْجزْ، وإنْ أصابك شيء فلا تقل: لو أنّي فعلتُ كذا وكذا، ولكنْ قل: قَدَرُ اللهِ ما شاء فعل، فإنّ لَوْ تفتح عمل الشيطان﴾[2].

هنا يبيّن ابن القيم أن هذا الحديث الشريف قد تضمن أصولاً عظيمةً من أصول الإيمان، منها:

أولاً: إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاحتجاج بالقدر الذي ينفع العبدَ الاحتجاجُ به.

ثانياً: أن الله سبحانه وتعالى موصوفٌ بالمحبة، وأنه يُحبُّ حقيقةً.

(١) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧٥٧ – ٧٥٩) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب الإيمان للقدر والإذعان له (١٦/١٦٤ ، ح٢٦٦٤) .

ثالثاً: أنه سبحانه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القويُّ ويحب المؤمن القوي، وهو وِتْرٌ يحب الوتـر، وجميلٌ يحب الجمال، وعليمٌ يحب العلماء، ونظيفٌ يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

رابعاً: أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضَهُمْ أكثرَ من بعض.

خامساً: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرصُ: هو بذلُ الجهد، واستفراغُ الوسـع، فإذا صادف ما ينتفعُ به الحريصُ كان حرصه محموداً، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكـون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإنْ حَرَصَ على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص، فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك، ولمَّا كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه، أَمَرَهُ أن يستعين به ليجتمع له مقام إياك نعبد وإياك نستعين، فإنَّ حرصه على ما ينفعه عبادة لله، ولا تتم إلا بمعونته، فأمره بأن يعبده وأن يستعين به، ثم قال: "ولا تَعْجِزْ"، فإنَّ العجز ينافي حرصه على ما ينفعه، وينافي استعانته بالله، فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هـو مـن أعظـم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أَزِمَّةُ الأمور بيده ومصدرها منه، ومردها إليه[1].

سادساً: أنَّ العبد إذا فاته ما لم يقدَّر له، فله حالتان: حالة عجز، وهي مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى "لو"، ولا فائدة في "لو" هاهنا، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فـنهاه صلى الله عليه وسلم عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية وهي: النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدِّر له لم يفته، ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النـافذة التـي توجب وجود المقدور، وإذا انتفت امتنع وجوده، فلهذا قال: "فإن غلبك أمرٌ فلا تقل: لو أنِّي فعلـتُ لكان كذا، ولكنْ قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل"، فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته[2].

يقـول ابـن القيم: "لهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبداً، بل هو أشد شيء إليه ضرورة، وهو يتضـمن: إثبـات القـدر، والكسب، والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدمه".

(٢) ويقول النبي صلى الله عليه وسلم، في حديث الاستخارة:

"إذا هـم أحدكـم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فيسِّره لي، ثم بارِكْ لي فيه، وإنْ كنتَ تعلم أن هذا الأمـر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به"[3].

(١) انظر: شفاء العليل، تحقيق: الصمعاني (١/١١٤ – ١١٥).
(٢) شفاء العليل، تحقيق: الصمعاني (١/١١٦).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة (١١/٢١٨ – ٢١٩، ح٦٣٨٢) مع فتح الباري – للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، ط/الأولى، مكتبة دار السلام، الرياض، ومكتبة دار الفيحاء، دمشق ١٤١٨هـ.

وهنا يبيّن ابن القيم أن هذا الحديث الشريف قد تضمن أصولاً مهمة، منها:

أولاً: إثبات أنواع الاستطاعة التي يثبتها أهل السنة والجماعة لأن قوله: (إذا همّ أحدكم بالأمر) صريح في أنه الفعل الإختياري المتعلق بإرادة العبد، وإذا علم ذلك فقوله: (أستقدرك بقدرتك) أي: أسألك أن تقدرني على فعله بقدرتك، ومعلوم أنه لم يسأل القدرة المصححة التي هي سلامة الأعضاء وصحة البنية، وإنما سأل القدرة التي توجب الفعل فعلم أنها مقدورة لله ومخلوقة له، وأكد ذلك بقوله: (فإنك تقدر ولا أقدر) أي: تقدر أن تجعلني قادراً فاعلاً ولا أقدر أن أجعل نفسي كذلك.

ثانياً: إثبات علم الله، فقوله: (تعلم ولا أعلم) أي: حقيقة العلم بعواقب الأمور ومآلها والنافع منها والضار عندك وليس عندي، ولما كان الفعل الإختياري متوقفاً على العلم والقدرة والإرادة لا يحصل إلا بها، توسل الداعي إلى الله بعلمه وقدرته وإرادته التي يؤتيه بها من فضله، وأكد هذا المعنى بتجرده وبراءته من ذلك، فقال: (إنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر) وأمر الداعي أن يعلق التيسير والصرف بالشرط، وهو علم الله سبحانه تحقيقاً للتفويض إليه واعترافاً بجهل العبد بعواقب الأمور كما اعترف بعجزه[1].

ثالثاً: إثبات خالقية الله لداعية الفعل والترك عند الإنسان لأنّ قوله: (يسّره لي) (اصرفه عني) طلب من الله تيسيره إنْ كان له فيه مصلحة وصرفه عنه إن كان فيه مفسدة، وهذا التيسير والصرف متضمن إلقاء داعية الفعل في القلب، أو إلقاء داعية الترك فيه، ومتى حصلت داعية الفعل حصل الفعل، وداعية الترك امتنع الفعل، وفيه إبطال لزعم القدرية أن ترجيح فاعلية العبد على الترك منه ليس للرب فيه صنع ولا تأثير، فطلب هذ التيسير منه لا معنى له عندهم فإن تيسير الأسباب التي لا قدرة للعبد عليها موجود ولم يسأله العبد.

رابعاً: خالقية الله لأعمال القلوب، ويدل على ذلك قوله (ثم رضني به) يدل على أن حصول الرضا وهو فعل اختياري من أفعال القلوب أمر مقدور للرب تعالى، وهو الذي يلقيه في قلب عبده فيجعله راضياً، وعند القدرية هو الذي يجعل نفسه راضياً.

خامساً: إثبات خالقية الله للأفعال الإختيارية لأن قوله: (فاصرفه عني واصرفني عنه) صريح في أنه سبحانه هو الذي يصرف عبده عن فعله الإختياري إذا شاء صرفه عنه، وقوله: (واقدر لي الخير حيث كان) يعم الخير المقدور للعبد من طاعته وغير المقدور له، فعلم أن فعل العبد للطاعة والخير أمر مقدور لله إن لم يقدره الله لعبده لم يقع من العبد[2].

وأخيراً .. يقول ابن القيم: (ففي هذا الحديث الشفاء في مسألة القدر)[3].

وقول النبي صلى الله عليه: (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[4].

---

(١) انظر: شفاء العليل، تحقيق: الصمعاني (٢/٥٥٦ – ٥٥٧).

(٢) انظر: شفاء العليل، تحقيق: الصمعاني (٢/٥٥٧ – ٥٥٨).

(٣) شفاء العليل، تحقيق: الصمعاني (٢/٥٥٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤/١٥٢، ح٤٨٦).

وعــند هذا الحديث يبيّن ابن القيم أنه اشتمل على أسرار عظيمة؛ من تحقيق القدر وإثباته، وغير ذلك، ومن تلك الأمور:

أولاً: أنه يستعاذ بصفات الرب كما يستعاذ بذاته، وكذلك يستغاث بصفاته كما يستغاث بذاته.

ثانياً: في هذا ما يدلّ على أن هذه صفات ثابته وجودية؛ إذْ لا يستعاذ بالعدم، وأنها قائمة به غير مخلوقة؛ إذ لا يستعاذ بالمخلوق.

ثالثاً: أن العفو من صفات الفعل القائمة به، وفيه رد على من زعم أن فعله عين مفعوله؛ فإن المفعول مخلوق ولا يستعاذ به.

رابعاً: أن بعض صفاته وأفعاله سبحانه أفضلُ من بعض؛ فإنّ المستعاذ به منها أفضل من المستعاذ منه، وهذا كما أن صفة الرحمة أفضل من صفة الغضب؛ ولذلك كان لها الغلبة والسبق.

خامســاً: أن الغضــب والرضا، والعفو والعقوبة، لما كانت متقابلة استعاذ بأحدهما من الآخر، فلمّا جاء إلى الــذات المقدســة التــي لا ضــد لها ولا مقابل لها؛ قال: (وأعوذ بك منك) فاستعاذ بصفة الرضى من صفة الغضب، وبفعل العفو من فعل العقوبة، وبالموصوف بهذه الصفات والأفعال منه[1].

يقــول ابن القيم: (وهذا يتضمن كمال الإثبات للقدر والتوحيد بأوجز لفظ وأخصره؛ فإنّ الذي يستعاذ منه من الشــر وأسبابه هو واقع بقضاء الرب تعالى وقدره، وهو المنفرد بخلقه وتقديره وتكوينه، فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، فالمستعاذُ منه إما وصفه، وإما فعله، وإما مفعوله الذي هو أثر فعله، والمفعولُ ليس إليه نفع ولا ضــر ولا يضر إلا بإذن خالقه. فالذي يستعاذ منه هو بمشيئته وقضائه وقدرته، وإعاذته منه وصرفه عن المستعيذ إنما هو بمشيئته أيضاً وقضائه وقدرته، فهو المعيذ من قدره بقدره، ومما يصدره عن مشيئته وإرادته بمــا يصــدره عن مشيئته وإرادته، والجميع واقع بإرادته الكونية القدرية، فهو يعيذ من إرادته بإرادته؛ إذ الجمــيع خلقه وقدره وقضاؤه، فليس هناك خلق لغيره فيعيذ منه هو، بل المستعاذ منه خلق له، فهو الذي يعيذ عــبده مــن نفســه بنفسه، فيعيذه مما يريده به بما يريده منه، فليس هناك أسباب مخلوقة لغيره يستعيذ منها المســتعيذ بــه كمــا يســتعيذ من رجل ظلمه وقهره برجل أقوى منه أو نظيره، فالمستعاذُ منه هو الذنوب وعقوباتها، والآلام وأسبابها، والسبب من قضائه، والمسبب من قضائه، والإعاذة بقضائه، فهو الذي يعيذ من قضــائه بقضــائه، فلم يعذ إلا بما قدّره وشاءه، وقدّر الإستعاذة منه وشاءها، وقدر الإعاذة وشاءها، فالجميع قضاؤه وقدره وموجب مشيئته.. وهذا كله تحقيق للتوحيد والقدر، وأنه لا رب غيره ولا خالق سواه، ولا يملك المخلوق لنفسه ولا لغيره ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، بل الأمر كله لله ليس لأحد سواه منه شيء)[2].

وممــا تقدم يتضح بصورة جلية مكانة النص الشرعي عند ابن القيم في كتابه، ومنهجيته العلمية في التعامل معه استنباطاً واستدلالاً وبياناً، وأن النص هو أساس استدلاله واستنباطه وتأصيله، ولا تأصيل لأمور العقيدة

(١) انظر: شفاء العليل، تحقيق: العجلان (٢/٥٦٠ – ٥٦٣).

(٢) شفاء العليل، تحقيق: العجلان (٢/٥٦٣ – ٥٦٥).

عـــنده – رحمه الله – من خارج نصوص الوحي، بل التأصيل موقوف عليه وحده ، ولا شك أن هذه المكانة العظــيمة للنص عند ابن القيم نابعة من منهجيته السلفية، التي تقدم النص وتعظّمه على سائر الأمور، فالنص هو أساس العقيدة والشرعية، تأصيلاً واستدلالاً واستنباطاً، ولذلك لا نستغرب هذه العناية الفائقة منه بالنص، فهي أصل الهداية والرشاد، ومخالفتها أصل الزيغ والضلال والفساد، والله أعلم .

الفصل الثاني

سمات ومنهج ابن القيم
في كتابه وفي قضايا العقيدة



وفيه مبحثان :

المبحث الأول : سمات منهج ابن القيم في كتابه .

المبحث الثاني : منهج ابن القيم في دراسة قضايا العقيدة .

المبحث الأول

سمات منهج ابن القيم في كتابه

تميز ابن القيم – رحمه الله – بميزات عظيمة وكثيرة، فهو العالم الرباني ، والفقيه الأصولي ، والباحث البارع ، والناقد الخبير ، والمفسر والمحلل المتمكن ، والأديب السامق ، والكاتب المبدع ، وهذه الميزات العظيمة كان لها الأثر الكبير في كتاباته وأسلوبه في مؤلفاته وأبحاثه .

ولذلك تميز ابن القيم في البحث والتأليف بخصائص ظاهرة ، وسمات بارزة ، جعلت أهل العلم في كل عصر ومصر يعجبون ويطلعون على مؤلفاته ، ويستشهدون بأقواله ، ويقتبسون من كتبه، وما ذلك إلا لأن كتابات ابن القيم انفردت بخصائص ظاهرة ، وسمات بارزة ، تميزت بها مؤلفاته من بين مؤلفات علماء عصره[1].

وفي كتاب "**شفاء العليل**" تجلت تلك السمات والخصائص والمميزات ، ويمكن تقسيمها إلى قسمين : السمات والخصائص الفنية ، والسمات والخصائص المنهجية ؛ ولبيانها بالتفصيل أقول :

أولاً : السمات والخصائص الفنية :

تميزت كتابات وأبحاث ابن القيم بسمات وخصائص فنية كثيرة ، وهي الخصائص والسمات الخاصة بالجانب الشكلي الفني للكتاب ، بألفاظه وأساليبه وشكله وتنسيقه وترتيبه ، وهي خصائص تتعلق بأسلوب الكتابة والبحث عند المؤلف ، من الناحية الأدبية والتنظيمية والشكلية ، ومن هذه الخصائص والسمات الفنية عند ابن القيم في كتابه "**شفاء العليل**" ما يلي :

(١) الأسلوب الأدبي :

من أهم سمات ابن القيم الفنية في كتبه عامة ؛ أسلوبه الأدبي الرائع، فقد تميز ابن القيم بالبيان ، والجاذبية ، وحسن التصوير ، وكمال العرض ، واستخدام المحسنات اللفظية في محلها المناسب ، مثل : الإقتباس ، والتضمين ، والسجع ، والاستشهاد ، وروعة الوصف ، وغير ذلك من قوة المعاني ، وعمق الأفكار وتسلسلها ، وجاذبية العرض ، وجمال اللفظ ، وعمق البحث[2] .

وقد أوتي ابن القيم – رحمه الله – قدرة فائقة على صياغة كلامه بأسلوب عذب خال من التكلف والتصنع ، فلفظه عذب ، وبيانه قويّ ، فكان كتابه حسن التصرف ، مع العذوبة اللفظية ، وحسن السياق ، وسهولة الأسلوب ، ومتانة العبارة ، وجزالة الكلمات ، وليس هذا بغريب عليه ؛ فأسلوبه الأدبي السامي نابع من كثرة اطلاعه على الآثار الأدبية التي زخرت بها المكتبة العربية والإسلامية في عهده ، وبراعته البلاغية والبيانية ، مما أكسب القراء جاذبية كبيرة لاقتناء كتبه وقراءتها والاستشهاد بأقواله وعباراته ، مع وجود الصراع العقائدي بين منهجهم وما يكتبه ابن القيم[3] .

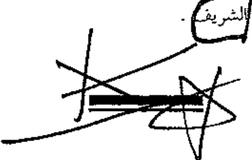
ومن تأمل كتاب "**شفاء العليل**" وجده تحقيقاً لهذه السمة ، فابن القيم يجمع بين المسائل ، ويجانس بين المباحث، بأسلوب أدبي بديع ، وبيان فصيح ، وعبارة جزلة ، وألفاظ عذبة ، دون تكلف ولا تقعر ، بل بأسلوب سيال سهل ، وانسجام وحيوية تامة، حتى ليخيل للقارئ أن ابن القيم يخاطبه ويحادثه ، بسبب قوة ومتانة أسلوبه وعباراته .

---

(١) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ٤٨) ، ابن قيم الجوزية سيرته منهجه وآراؤه في الإلهيات (ص ٣٩) .

(٢) انظر : مقارنة بين الإمامين ابن تيمية وابن القيم في تفسير المعوذتين — عبدالسلام محمد وفا (ص ١٣٧) رسالة ماجستير ، كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر الشريف .

(٣) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ٦٧ — ٦٨) ، ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه (ص ٨٤) .



يقول الشيخ علي الحسني الندوي واصفاً ما تمتاز به كتب ابن القيم : (تتميز برقة الأسلوب ، وسلاسة العبارة وتأثيرها ، ولعل ذلك جاء من قبل نفسه التي تحلت بالجمال أكثر منها بالجلال)[1] .

ويقـول الشيخ محمد أبو زهرة : (ابن القيم كان هادئ الطبع ، قوي الخلق ، أخذ من شيخه علمه وإخلاصه وإيمانـه ، ولم يأخذ عنه حدته ولم تكن كتابته في حومة الجدل كأكثر كتابات شيخه ، بل كانت كتابته في هـدأة واطمئـنان ولذلك جاءت هادئة ، وإن كانت عميقة الفكرة ، قوية المنحى ، شديدة المنزع ، وكانت حسـنة الترتيب ، منسقة التبويب ، متساوقة الأفكار ، طيلة العبارة لأنه كتبها في إطمئنان ، وتجمع كتابته جمعـاً متناسـباً بين عمق التفكير وبعد غوره ، ونصوع العبارة وحسن استقامة الأسلوب ، من غير ضجة ألفاظ... وكانت كتابته مع كل هذا ؛ فيها نور السلف ، وحكمة السابقين)[2] .

وقـد انطـبع كـتاب "**شفاء العليل**" بأسلوب ابن القيم هذا ، وهو ظاهر فيه ، من مقدمته حتى خاتمته ، ومن النصوص التي تعبر عن هذه السمة الفنية ما يلي :

يقـول ابـن القيم : (فلا يشغله – سبحانه – سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين على الدوام ، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، ويرى دبيب النملة السوداء تحت الصـخرة الصماء في الليلة المدلهمة الشديدة الظلام ، لا تسقط ورقة إلا بعلمه ، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، ولا يقع حادث إلا بمشيئته)[3] .

ويقول : (أشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله على حين فترة من الرسل ، ودروس من الكتب ، وطموس مـن السبل ، حين انقطع خبر الوحي من السماء ، وتاه الأدلاء في دياجي الظلماء ، وغشيت الأرض ظلمات الكفـر والشرك ، واستولى عليها أئمة الكفر وعساكر الفساد ، واستند كل قوم إلى ظلمات آرائهم ، وحكموا علـى الله وبين عباده بمقالاتهم الباطلة وأهوائهم ، فسبل الهدى عافية آثارها ، منحط منارها ، والضلالة قد تصرمت نارها ، وتطاير في الآفاق شرارها ، وظهر في أقطار الأرض شعارها ، وقد استحق الناس أن يحل بساحتهم العذاب ، وقد نظر الجبار إليهم فمقتهم عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، فأطلع الله شمس الرسالة في حنادس تلك الظلم)[4] .

وأخيراً يقول : (لما سبق في حكمته أن الجنة دار نعيم لا دار ابتلاء وامتحان ؛ جعل قبلها دار الابتلاء جسراً يعبر عليه إليها ، ومزرعة يبذر فيها ، وميناء يزود منها ، وهذا هو الحق الذي خلق الخلق به ولأجله)[5] .

(٢) الإعادة والتكرار :

ومن سمات ابن القيم البارزة الإعادة والتكرار وهي ظاهرة ملموسة في جميع كتبه – رحمه الله – والتكرار قد يكون ببحث الموضوع الواحد في أكثر من كتاب ، وقد يكون في الكتاب الواحد ، والإعادة والتكرار ليس عيـباً إلا إذا لم تكن في الإعادة إفادة ، وهذا ما يستبعد عن أمثال ابن القيم ، والحقيقة أنه عند الفحص الدقيق

---

(١) الحافظ أحمد بن تيمية – أبو الحسن علي الندوي ، تعريب : سعيد الأعظمي الندوي (ص ٣١٨) ، ط/الأولى ، دار القلم – الكويت ١٣٩٥هـ .

(٢) ابن تيمية حياته وعصره ، آراؤه وفقهه – محمد أبو زهرة (ص ٤٣٩ – ٤٤٠) ، دار الفكر العربي – القاهرة .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/١) .

(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٥ – ٦) .

(٥) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢/٤٥٠) .

والنظر العميق – كما يذكر الشيخ بكر أبو زيد – يتبيّن للباحث أن التكرار ليس من مواضع النقد ولا من مواطن العتب ، بل هي ميزة هامة وظاهرة محمودة ، نجدها بوضوح في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وفي مؤلفات السلف الصالح ، وقد ترتب عليها حكم عظيمة وفوائد جليلة ، مثل : العظة والاعتبار ، وتأكيد المعنى الصحيح ، وإزالة ما علق بالأفهام من الأوهام[1] .

وابن القيم – رحمه الله – يستخدم هذا الأسلوب لأسباب عديدة من تلك الأسباب :

أولاً : خطورة الموضوع الذي يتناوله ، وأهميته وحيويته في نظره ولذا يكرر الحديث عنه كلّما وجد لذلك فرصة ومناسبة .

ثانياً : قد يقع التكرار منه استطراداً ، ولأنّ من سماته الاستطراد ، ولذا قد يتكرر الموضوع الواحد مرات بسبب استطراده في المواضيع ، فيدخل فيه ما ليس منه ، كل ذلك كرماً منه بالعلم ، وأمانة في العرض ، وموسوعية في التناول .

ثالثاً : أن يكون التكرار هو عبارة عن اختصار لما سبق أن بسطه في موضع آخر ، فتكون الحاجة قائمة على الإعادة مع الاختصار .

رابعاً : أن يكون الموضوع لا يكتمل لأهميته إلا بإعادة ذكر مسألة قد سبق ذكرها .

ومن الأمثلة على التكرار عند ابن القيم في كتابه "**شفاء العليل**" ما يلي :

فقد تحدّث عن هداية الحمام في موضع من كتابه هذا[2] ، وأعاد الكلام فيه في موضع آخر[3] ، وتحدث عن مسائل في "**شفاء العليل**" مثل : مسألة طلاق الغضبان ، وطلاق السكران[4] ، وقد ذكرها في عدة من كتبه الأخرى .

(٣) الاقتباس والتضمين :

الاقتباس أو التضمين هو أن يأخذ المتكلم كلاماً من كلام غيره يدرجه في لفظه لتأكيد المعنى الذي أتى به ، فإنْ كان كلاماً كثيراً أو بيتاً من الشعر فهو تضمين ، وإن كان قليلاً أو نصف بيت فهو إيداع[5] .

ومن الأمثلة على أسلوب الاقتباس عند ابن القيم ؛ قوله : قالت النفاة : قد أجلبتم علينا بما استطعتم من خيل الأدلة ورَجْلها ، فاسمعوا الآن ما يبطله[6] فهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[7].

وأمثلة الاقتباس كثيرة في كتاب شفاء العليل[8] .

---

(١) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ٧٣ – ٧٤) .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٣٩٨) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٤١٥) .

(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٦٦) .

(٥) انظر : ابن القيم من آثاره العلمية (ص ٢١٣) .

(٦) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (١/٢٩٣) .

(٧) سورة الإسراء : آية (٦٤) .

(٨) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢ و ٥ و ٨ و ١٠ و ١٦ و ١٠٨ – ١٠٩ ، ٤٤٥ ، ٥٤٦) ، (٢/٧٤٤) وغيرها كثير .
وانظر : ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه (ص ٨١) .

(٤) السجع :

ومن سمات كتابات ابن القيم – رحمه الله – الفنية استخدام السجع فهو يميل إليه في أكثر كتبه ، وهو سجع غير متكلف ، ولا مقصود بذاته بحيث يؤثر على المعنى المراد التعبير عنه ، والسجع يعطي الكلام وقعاً عذباً على النفس ، تحس الأذن بجماله وإيقاعه وجرسه[١] .

ومن الأمثلة على استخدام السجع في كتاب "**شفاء العليل**" العنوان نفسه وهو : (**شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**) .

ومن ذلك قوله : (الحمد لله ذي الأفضال والإنعام ، والمنن الجسام ، والأيادي العظام ، ذي الجلال والإكرام ، الملك القدوس السلام)[٢] .

وقوله : (سبيل الهدى عافية آثارها ، منحط منارها ، والضلالة قد تصرمت نارها ، وتطاير في الآفاق شرارها ، وظهر في أقطار الأرض شعارها)[٣] .

وقوله : (عن طريق الصواب مصدود ، وباب الهدى في وجهه مسدود)[٤] .

(٥) حسن التصوير والوصف :

وكان لابن القيم حس [illegible] في الوصف وحسن التصوير ، يستطيع من خلاله أن يصور ما يريد في شكل قالب وصور فنية رائعة ، ومن الأمثلة على ذلك وصفه للعقل التأويلي بالخفاش حيث قال : (وما لم يزل من إثبات ذلك من الباطل الذي تتخيله خفافيش العقول فنحن له منكرون)[٥] .

ومرجع هذا التصوير البليغ والتعبير الدقيق أن الخفاش سريع التلف ، شديد الطيران ، ويوصف بالحمق ، كما أنه موصوف بضعف البصر والدماغ ، وصغر العين ، لا يبصر في ضوء النهار ولا في ضوء القمر ، وهذه الأوصاف تكاد تتطابق مع العقل المنحرف التأويلي[٦] .

ومن الأمثلة أيضاً حسن تصويره لشبهة الجبري وضعفها حيث قال : (هذا أحدُ سهم في كنانتك ، وهو بحمد الله سهم لا ريش له ولا نصل ، مع عوجه وعدم استقامته)[٧] .

ومن الأمثلة على حسن تصويره ووصفه ، ما وصف به حال الناس في القدر حيث قال :

(وقد سلك الناس في هذا الباب في كل واد ، وأخذوا في كل طريق ، وتولجوا كل مضيق ، وركبوا كل صعب وذلول ، وقصدوا الوصول إلى معرفته من كل سبيل)[٨] .

ومن تأمل ما كتبه ابن القيم عن هداية النحل والنمل والهدهد والحمام وغير ذلك ، وقف على دقة الوصف ، وحسن التصوير ، وجمال التعبير ، فقد وصف أحوالها وصفاً دقيقاً ، وبأسلوب جميل أخاذ غاية في الروعة[٩].

---

(١) انظر : ابن القيم من آثاره العلمية (ص ٢١٦) ، ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه (ص ٨٢ – ٨٣) .
(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/١) .
(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦/١) .
(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٩/١) .
(٥) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٧٢٨/٢) .
(٦) انظر : ابن القيم من آثاره العلمية (ص ٢١٧) .
(٧) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٧٣/٢) .
(٨) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٩/١) .
(٩) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٣٧٩/١ وما بعدها) .

(٦) ضرب الأمثلة :

ومــن سمات كتابة ابن القيم الفنية ضرب الأمثلة ، وهو أسلوب قرآني حيث جاء في القرآن الكريم الكثير من الأمثلة ، لبيان الأمر ، وتوضيحه ، وتقريبه إلى الأذهان ، فعن طريق المثال يتضح المقال .

ولبيان مسألة أفعال العباد وعلاقة فعل الرب بفعل العبد يستخدم ابن القيم الأمثلة لتقريب الصور وتوضيحها ولذلك ضرب لهذه المسألة بعض الأمثلة مثل : راكب الفرس ، ومن عرضت له صورة بارعة الجمال[١] .

وكذلــك ضــرب بعض الأمثلة لتقريب صورة وجود الشر النسبي الإضافي مثل : النار ، والقتل ، والظلم ، والماء الجاري ، والمطر وغير ذلك[٢] .

(٧) الاستطراد :

وهو سوق الكلام على وجه يلزم منه كلام آخر وهو غير مقصود بالذات بل بالعَرَض[٣] ، فالباحث يمسك عن الاسترســال في صلب الموضوع الذي يتناوله إلى موضوعات أخرى ثم يعود إلى موضوعه الأساس ، ولا شك أن الموضوعات التي تتفرّع عن موضوعه الذي حدّده أصلاً تمتّ بصلة إليه قريبة أو بعيدة ، وقد يكون وراء الاســتطراد تشــتّت الفكر من الباحث الذي ينقله إلى القارئ أو السامع ، وقد يكون دليلاً على غزارة العلــم، وتسابق المعلومات إلى القلم بحيث تلح كل معلومة على الكاتب أن يسجلها ، ولقد كان ابن القيم منظم الفكر في أبحاثه ولذا يستبعد أن يكون استطراده من باب التشتت الفكري[٤] .

والاســتطراد ظاهــرة ملحوظة عند ابن القيم في عامّة كتبه ، وقد عدّها البعض من عيوب التأليف عنده[٥] ، والحقــيقة أن الاســتطراد في بحوث ابن القيم العلمية هي من باب الاستطراد التناسبي الذي هو محبّب إلى الــنفس مما يزيد المبحوث لذاته وضوحاً وبياناً ، ويكسب القارئ معرفة الارتباط بين العلوم الإسلامية ومدى ارتباطها ببعض ، وابن القيم يرى أن استطراده هو من باب الجود والكرم بالعلم المفيد النافع[٦] ، وهذا الجود مــن خصــائص منهج ابن القيم في مؤلفاته حيث إنه إذا عرض لمسألة من المسائل استوعب الكلام فيها من جميع جوانبها ، فيتتبع أطرافها ويستوفي الحديث عنها وعن فروعها ، وهذا ما يدل على سعة علمه – رحمه الله – وحرصه على بيانه ونشره .

ومــن الأمــثلة على استطراده : حديثه عن هداية الحيوان ، عند حديثه عن مراتب الهداية ، حيث استطرد حوالــي أربعا وأربعين صفحة للحديث عن هداية النحل ، والنمل ، والحمام ، والهدهد ، والثعلب ، والقرد ، والبقرة وغيرها[٧] .

وقد أدرك ابن القيم أنه أطال في استطراده هذا ولذا قال في نهايته : فلنرجع إلى ما ساقنا إلى هذا الموضع وهو الكلام على الهداية العامة التي هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى[٨] .

---

(١) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٦٤/٢) .

(٢) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (١٩٠/١ – ١٩٢) .

(٣) انظر : التعريفات–علي بن محمد الجرجاني ، عناية: محمد بن عبدالحكيم القاضي (ص ٣٧) ، ط/الأولى ، دار الكتاب المصري–القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني– بيروت١٤١١هـ.

(٤) انظر : ابن القيم من آثاره العلمية (ص ٢١٩ – ٢٢٠) .

(٥) انظر : ابن القيم المنتخب (ص ٧٢) .

(٦) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ٦١ – ٦٣) ، ابن قيم الجوزية سيرته منهجه وآراؤه في الإلهيات (ص ٤٧ – ٤٨) .

(٧) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٣٧٩/١ – ٤٢٣) .

(٨) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٤٢٤/١) .

وعـــند حديثه عن أفعال العباد استطرد في مسألة أنواع التعطيل[١] ، وفي مسألة التسلسل[٢] ، ومسألة الأمور الوجودية والعدمية[٣] .

وعند حديثه عن الحكمة ووجود الشر استطرد في مسائل كثيرة منها : أقسام القلوب[٤] ، ومسألة الاسم هل هو المسمى أو غيره[٥] وغيرها من المسائل .

(٨) الموسوعية (الاستيعاب والشمولية) :

ومـــن ســـمات ابن القيم الفنية في أبحاثه الموسوعية والشمولية ، فهو – رحمه الله – إذا عرض لمسألة من المســـائل استوعب الكلام فيها من جميع جوانبها ، حيث إنه يتتبع أطراف المسألة ويجمع كل ما قيل فيها من الأقوال ، ويبيِّن أدلتها ، ويناقشها واحدة واحدة ، ثم يثبت ما يراه مناسباً ، فيستقصي جميع ما يتعلق بالقضية ويبســـطها كل البسط ، وليس هذا بغريب على ابن القيم الذي حاز علوماً شتى ، حتى إن القارئ عندما يقرأ كلاماً له حول مسألة لغوية مثلاً ، يتبادر إلى ذهنه لأول وهلة أن هذا العلم هو ميدانه ، ثم ما يلبث أن يزداد إعجاباً بهذا العالم الرباني عندما يقرأ له في فن آخر ، ولذا فلا عجب عندما توصف مؤلفاته بالسعة والشمول، نظراً لامتلاك صاحبها زمام كثير من الفنون والعلوم[٦] .

والموســـوعية مـــن سمات ابن القيم البارزة التي هي منة علمية كبرى امتن الله بها عليه ، لأن هذا الأسلوب الموسوعي لا يطيقه إلا من كان على شاكلة ابن القيم في العلم والتفنن والبحث[٧] .

وتظهـــر موســـوعية ابن القيم جلية في مصادره المتنوعة ، ومعلوماته الغزيرة ، فمصادر ابن القيم في كتابه "**شـــفاء العلـــيل**" ومـــوارده كثيرة جداً[٨] ، مما يدلل على موسوعية وشمولية واستيعابية ابن القيم ، كما أن مواضـــيعه المخـــتلفة والمتنوعة في كتابه دليل آخر على موسوعيته – رحمه الله – فمن مواضيع لغوية إلى علمـــية إلى حديثية إلى تفسير إلى فنون مختلفة ، كل ذلك يبرهن على موسوعية كبيرة كان ابن القيم يتحلى بها.

(٩) حسن الترتيب والعرض والتبويب :

تمـــتاز مصـــنفات ابن القيم بحسن الترتيب والتقسيم للمادة العلمية التي تحتويها ، الأمر الذي يجعل لمؤلفاته جاذبـــية خاصة ، يشعر بها القارىء وهو يتنقل من باب إلى باب ، ومن فصل إلى فصل ، ومن يتأمل كتاب "**شفاء العليل**" يجده مرتباً ترتيباً بديعاً ، مع الترابط والتجانس بين أبوابه وفصوله ، بحيث يسلمك كل باب إلى الـــذي بعده في تسلسل موضوعي ممتع ، وهذا الترتيب والتنظيم سمة بارزة في مؤلفاته – رحمه الله – فلديه من حسن الترتيب والإبداع في التبويب ما جعل مؤلفاته محل إعجاب وقبول[٩] .

---

(١) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٧١٧/٢) .

(٢) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٧٢٤/٢) .

(٣) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٧٧٣/٢) .

(٤) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢٣٤/١) .

(٥) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٥٧٩/٢) .

(٦) انظر : ابن القيم من آثاره العلمية (ص ٢٢٢) ، ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها (١٥٠/١) .

(٧) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ٥٦) ، ابن قيم الجوزية سيرته ومنهجه وآراؤه في الإلهيات (ص ٤٤) .

(٨) انظر : موارد ابن القيم في كتبه – العلامة بكر بن عبدالله أبو زيد ، ط/الثانية ، مكتبة المعارف – الرياض ١٤٠٥هـ .

(٩) انظر : ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ٦٨) ، ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها (١٥٥/١ – ١٥٦) .

ويرجع تميز ابن القيم في هذه السمة إلى تفرّغه للتأليف ، وبذله العناية والوقت في صياغة مؤلفاته وكتبه
يقــول الشــيخ محمد أبو زهرة : (كانت كتابته في هدأة واطمئنان ولذلك جاءت هادئة ، وإن كانت عميقة الفكرة ، قوية المنحى ، شديدة المنزع ، وكانت حسنة الترتيب ، منسقة التبويب ، متساوقة الأفكار)[1] .
ويقول الشيخ الندوي : (تمتاز مؤلفاته بحسن الترتيب وجودة التأليف)[2] .

ومــن بــراعة التنظيم والترتيب عند ابن القيم أنه يعطي نبذةً عن الكتاب ومخططاً مصغراً عنه في المقدمة ، ويقســم للقــارئ منذ اللحظة الأولى الكتاب إلى أبواب وفصول ولذا فمن تأمل وتمعن في أسلوب ابن القيم ومــنهجه في الترتيب والتبويب يقطع أنه كان يسير على خطة مرسومة وتصور مسبق ويؤيد هذا أنه كان كثيراً ما يرجئ بعض أبحاثه إلى أبواب وفصول لاحقة ، وكان يهتم اهتماماً كبيراً بترتيب المسائل ، وتسلسل الأفكار ، وبحثها شيئاً فشيئاً ، والانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، ومن القاعدة إلى الفرع .

يقــول ابــن القيم في مقدمة كتابه : (اجتهدت في جمع هذا الكتاب وتهذيبه وتحريره وتقريبه ، فجاء فرداً في معناه ، بديعاً في مغزاه ، وسميته **شفاء العليل** في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، وجعلته أبواباً : الباب الأول .... إلخ)[3] .

ثــم يمضي في عرض جميع الأبواب من الأول حتى الأخير – وباسم كل باب ، ثم يختم هذا الفهرس المنظّم بكلمات لطيفة تدعو إلى تقبّل الحقّ والفائدة دون الاعتبار بمن ألّفه .

وقــد سار ابن القيم بشكل دقيق وعملي على هذه الخطة دون الإخلال بها ، ومن يتصفح كتاب "**شفاء العليل**" يجده مرتباً ومنظماً بشكل متميز ، بل ويجد مؤلّفه يسير على هداه وخطته .

فمــثلاً : فــي بــاب مرتــبة خلق الله سبحانه للأعمال وتكوينه وإيجاده لها ، تطرّق عَرَضاً لمسألة الهداية والضلال، فاختصر الكلام فيها وأجّلها إلى حين بلوغه الباب الخاص بها .

يقــول : (وسنذكر في الباب الذي بعد هذا إن شاء الله تعالى ذكر الهدى والضلال ومراتبهما وأقسامهما)[4] ، والــباب الثالث عشر هو باب مرتبة خلق الله سبحانه للأعمال وتكوينه وإيجاده لها ، والباب الرابع عشر هو باب الهدى والضلال .

وهكــذا نجد ابن القيم أقام كتابه على تنظيم فريد ، وترتيب بديع ، وتسلسل منتظم ، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً[5] .

(١٠) الاختصار والتلخيص :

ومــن السمات الفنية التي تميز بها أسلوب ابن القيم في كتابه الاختصار والتلخيص فبعد أن يعرض المسألة ويفصّلها ويفصّل الأقوال فيها ، وتطول ويستطرد ، حتى يخشى أن يكون القاريء نسي أصل المسألة ، يقدّم تلخيص واختصار للمسألة يذكّر بها القاريء ويرسّخ فيه القضية على شكل تلخيص موجز لأصل المسألة .

تلخيصاً واختصاراً

(١) ابن تيمية حياته وعصره (ص ٤٣٩) .
(٢) الحافظ أحمد بن تيمية (٣١٨) .
(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢٠ – ٢٦) .
(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٣٢٢) .
(٥) انظر للمزيد : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٣٣٦ ، ٣٧٧) ، (٢/٧٥٧ ، ٧٦٧) .

ولذلك بعد كل مسألة طويلة يختمها ابن القيم بقوله : (وخلاصة المسألة ، أو سرّ المسألة ، أو المقصود)[1] .

(١١) دقته في اختيار العناوين المناسبة :

ومـــن ســماته – رحمـــه الله – دقته في اختيار الأسماء والعناوين لكتبه وأبوابها ، ومراعاة التطابق الاسم والمضـــمون ، وهذه ملاحظة يدركها من تأمل كتب ابن القيم ، وطابق بين اسمها وما بداخلها ، مع تفننه في اختيار هذه العناوين ، بين قوة ورقة ، وترهيب وترغيب ، وكتاب "**شفاء العليل**" خير مثال على هذه السمة ، من العنوان الأساسي ، حتى أسماء عناوين الأبواب وتطابقها مع مضمونها .

ومما تقدَّم تتبيَّن بعض السمات الفنية التي توافرت في أسلوب ابن القيم البحثي والتأليفي ، وبروزها في كتابه **شفاء العليل** بشكل جلي وواضح .

(١) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٥٨/٢)
وانظر : شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (١٨٣/١ ، ١٩٢ ، ٣٢٦ ، ٣٤٧) ، (٦٨٩/٢) .

ثانياً : السمات والخصائص المنهجية :

في مقابل ما تميز به ابن القيم من سمات وخصائص فنية ، تميز بسمات وخصائص منهجية ، وهي السمات والخصائص المتعلقة بالمضمون والمحتوى ، ولا علاقة لها بالجانب الشكلي الفني ؛ فالسمات المنهجية خاصّة بصلب المضمون العلمي للبحث ، وأساليبه وأدواته البحثية الموضوعية ، ومن هذه الخصائص والسمات المنهجية التي يتمتّع بها ابن القيم في كتابه "شفاء العليل" ما يلي :

(١) الأمانة والدقة في نقل النصوص :

من أهم سمات البحث المنهجية عند ابن القيم في كتابه هذا – وغيره – الأمانة والدقة في نقل النصوص ونسبتها لأصحابها ؛ فهو أمين في نقله ، أمين في نسبته لأصحابه ، يلتزم توثيق الأقوال والنصوص كمنهجية ثابتة راسخة ؛ في عصر لم يكن العلماء يهتمون فيه بالعزو إلى المصدر ، بل كان هدفهم بيان الحق وتبليغه للناس دون الحرص على التوثيق ، أما ابن القيم فقد كان دقيقاً في عزوه ، دقيقاً في نقله ؛ ولذا فهو يصرّح باسم المصدر الذي ينقل منه ، واسم المؤلف ، وكثيراً ما يقول : "ونحن نذكر كلامه بلفظه" كل ذلك يدل على منهجيته الدقيقة في النقل والعزو .

ومما يؤكّد أمانته ودقته في النقل أننا حين نقابل النصوص التي ينقلها ابن القيم بمصادرها الأصلية التي نص على أنه نقل منها ، نجد شبه تطابق بينها ، أو تطابق كامل بين ما ينقله ابن القيم عنها وبين إحدى نسخها المخطوطة ، وهذا ما يثبت الأمانة العلمية عنده – رحمه الله – ودقته في النقل والعزو كمنهجية ثابتة راسخة التزمها في بحوثه ومؤلفاته[١] .

والأمثلة على أمانته ودقته في النقل والعزو كثيرة في كتابه "شفاء العليل" وسوف أقتصر على بعضها ، ومن ذلك :

ما نقله ابن القيم عن الإمام عبدالله الأنصاري[٢] ؛ حيث قال : (وقد وقع في كلام شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبدالله بن محمد الأنصاري ما يوهم ذلك – أي تبرير المعاصي بالقدر – وقد أعاذه الله منه ؛ فإنه قال في باب التوبة من "منازل السائرين" : ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء : أولها : أن تنظر بين الجناية والقضية .. إلخ)[٣] .

وبالرجوع إلى المصدر الأصلي الذي نقل عنه ابن القيم ونص على اسمه واسم مؤلّفه ، نجد النص بتمامه هناك ، في كتاب "منازل السائرين"[٤] وفي باب التوبة كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله .

---

(١) انظر : ابن القيم من آثاره العلمية (ص ٢٢٤) ، مقدمة الصواعق المرسلة (١/١٠٦ – ١٠٨) ، ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها (١/١٥٨ – ١٥٩) .

(٢) هـو الإمام القدوة ، الحافظ الكبير ، عبدالله بن محمد بن علي بن محمد الأنصاري الهروي ، أبو إسماعيل ، من ذرية أبي أيوب الأنصاري ، من كبار الحنابلة ، كان آية في لسان التذكير والتصوف ، مـن سلاطين العلماء ، قال عنه الإمام الذهبي : "كان يدري الكلام على رأي الأشعري ، وكان شيخ الإسلام أثرياً قحّاً ، ينال من المتكلمة ، ولقد بالغ أبو إسماعيل في كتابه ذم الكلام على الأتباع فأجاد ، ولكنّ له نفس عجيب لا يشبه نفس أئمة السلف في كتابه (منازل السائرين) ففيه أشياء مطربة ، وفيه أشياء مشكلة" .

وقد كان أفضل شرح لهذا الكتاب الأخير كتاب ابن القيم البديع مدارج السالكين حيث تعقّب الأنصاري وبيّن ما في كتابه من مشكلات ، ثم انتقدها انتقاداً جيداً رصيناً .

وقد توفي الأنصاري الهروي سنة (٤٨١هـ) وكان مولده عام (٣٩٦هـ) رحمه الله رحمة واسعة .

انظر : سير أعلام النبلاء (١٨/٥٠٣ – ٥١٨) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/١٠٠ – ١٠١) .

(٤) انظر : منازل السائرين – شيخ الإسلام عبدالله الأنصاري الهروي (ص ١٤) ، مكتبة الشرق الجديد – بغداد ، العراق ١٩٩٠م .

وكذلــك نجد نفس الدقة والأمانة العلمية عند ابن القيم عندما نقل هذا النص حيث قال : قال شيخ الملحدين ابن سينا في إشاراته : العارف لا ينكر منكراً لاستبصاره بسر الله تعالى في القدر[1] .

فهـنا نجـده قد وثّق ما نقله بالنص على اسم المؤلف واسم المصدر ، وبالرجوع إلى ذلك المصدر نجد دقة وأمانة ابن القيم في نقله وتوثيقه وعزوه[2] .

وفــي الــباب الخــاص بالكســب والجبر ينقل ابن القيم – رحمه الله – نصاً طويلاً كاملاً من إمام الحرمين الجويني[3]، يقول :

الذي قاله الإمام – يقصد الجويني – في النظامية أقرب إلى الحق مما قاله الأشعري[4] وابن الباقلاني[5] ومن تابعهما ، ونحن نذكر كلامه بلفظه . قال : قد تقرّر عند كل حاظٍ بعقله ، مرتق عن مراتب التقليد في قواعد التوحـيد ، أنّ الرب سبحانه مطالب عباده بأعمالهم في حياتهم وداعيهم إليها ... إلى أن قال في نهاية نقله انتهى كلامه بلفظه[6] .

فابـن القيم – رحمه الله – وبكل أمانة علمية ومنهجية ، ينقل هذا النص الطويل الذي تجاوز عشر صفحات بتوثـيق كـامل ودقيق فقد وثّق المصدر الذي نقل منه ، ووثّق اسم مؤلفه ، ثم بيّن في البداية والخاتمة أنه ســوف يـنقل كلامه بلفظه ، وبالرجوع إلى ذلك المصدر نجد النقل متطابق تماماً[7] وهذا في غاية الدلالة على منهجية ابن القيم النقل الأمين ، والتوثيق العلمي الدقيق .

والمــثال الأخير الذي أختم به منهجية الأمانة والتوثيق عند ابن القيم ما نقله ابن القيم عن ابن فُورك[8] حيث قــال: الــذي حكى عنه ابن فورك في كتاب تجريده لمقالاته أنه – أي الأشعري – كان لا يفرّق بين ذلك ، قال: وكان لا يفرق بين الود والحب ، والإرادة والمشيئة والرضا ، وكان لا يقولُ إن شيئاً منها يخص بعض المرادات .. إلخ[9] .

---

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٩٧) .

(٢) انظر : الإشارات والتنبيهات — ابن سينا ، تحقيق : د. سليمان دنيا (٤/١٠٤) ، ط/ الثانية ، دار المعارف — القاهرة ، مصر ١٣٨٨هـ .

(٣) هــو عــبدالملك بــن عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني ، أبو المعالي ، إمام الحرمين ، وشيخ الشافعية ، ولد سنة (٤١٩هـ) في نيسابور ، ثم رحل إلى بغداد وغيرها ثم رجع إلى نيسابور ، فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فدرس بها ، له مؤلفات مشهورة منها : العقيدة النظامية ، والإرشاد في أصول الدين ، والشامل ، توفي سنة (٤٧٨هـ) بنيسابور .
انظر : سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦٨ — ٤٧٧) .

(٤) هــو علي بن إسماعيل بن إسحاق ، أبو الحسن ، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وإليه ينسب مذهب الأشاعرة ، كان من الأئمة المتكلمين ، ولد في البصرة ســنة (٢٦٠هـ) ونشأ على مذهب المعتزلة ، وتقدم فيه ، ثم رجع عنهم وجاهر بخلافهم ، وتوفي ببغداد سنة (٣٢٤هـ) ، له مؤلفات كثيرة ومشهورة منها : مقالات الإسلاميين ، الإبانة، اللمعة ، رسالة أهل الثغر.. وغيرها .
انظر : سيرة أعلام النبلاء (١٥/٨٥) .

(٥) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ابن الباقلاني ، قاضٍ من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة ، وسكن بغداد وتوفي بها سنة (٤٠٣هـ) ، له مؤلفات عديدة منها : إعجاز القرآن ، الإنصاف ، التمهيد ، الاستبصار وغيرها .
انظر : سير أعلام النبلاء (١٧/١٠٩) .

(٦) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦١٣ — ٦٢٠) .

(٧) انظر : العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية — إمام الحرمين الجويني ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري (ص ٤٢ — ٥٤) ، المكتبة الأزهرية للتراث — القاهرة ١٤١٢هـ .

(٨) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني ، قال عنه الذهبي : كان أشعرياً رأساً في فن الكلام ، أخذ عن أبي الحسن الباهلي ، صاحب الأشعري ، مات سنة (٤٠٤هـ) .
انظر : سير أعلام النبلاء (١/٢١٤) .

(٩) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٢٤) .

فهنا وثّق ابن القيم نقله بذكر المصدر ، واسم المؤلف ، وبالرجوع إلى المصدر الأصلي نجد التطابق بينه وبين ما نقله ابن القيم[1] ، وفي ذلك برهنة على منهجيته الراسخة في التوثيق العلمي ، وأمانة النقل ودقته .

(٢) الوسيطة (انتخاب الأصوب) :

يؤكد ابن القيم أن دين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه ، وخيرُ الناس النَّمطُ الأوسط ، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرّطين ، ولم يلحقوا بغلوّ المعتدين ، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطاً ، وهي الخيار العدل ، لتوسطها بين الطرفين المذمومين ، والعدل هو الوسط بين طرفي الجَوْر والتفريط ، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف ، والأوسط محميٌّ بأطرافه ، فخيار الأمور أوسطها[2] .

وقد عاش – رحمه الله – في عصر كثرت فيه المذاهب الكلامية والآراء الفلسفية ، واحتدم النزاع بين أصحاب هذه المذاهب والآراء إلى درجة كبيرة ؛ ولذلك أخذ ابن القيم على نفسه دراسةَ جميع هذه الثقافات الكلامية والفلسفية التي انتهت إلى عصره ، وطاف بين المذاهب المختلفة ، وتعمقها دراسةً وفهماً ، ثم أخذ على نفسه نقدها وتمحيصها ، وبيانَ صحيحها من سقيمها ، ثم ارتضى منها ما نهض الدليلُ السليم الصحيح على تأييده وإثباته ، وفي هذا المنهج تتجلى السمة المنهجية عند ابن القيم المتمثّلة بالوسطية أو الانتخابية ، القائمة على البحث والنقد والتمحيص ، وتأييد الرأي المختار بالدليل والبرهان ، ودحض الآراء التي لا يشهد لها الدليل ، ولا تدعمها الحجة[3] .

ولذلك بنى ابن القيم آراءه على الوسطية النابعة من الخيار العدل ؛ وذلك بنقد وتمحيص المذاهب المتعدّدة وانتخاب واختيار ما قام الدليل على صحته ؛ إذ الانتخاب إنما يعني عدم التبعية لمذهب معين أو شخص معين، وإنما يعني التبعية للدليل والحق ، ومن الأسباب التي جعلت ابن القيم ينتهج هذا النهج – أي الاختيار والانتخاب – كثرةُ المذاهب المختلفة في ذلك العصر ، وتعدُّدُ الفرقِ الكلامية ، فقد انتهتْ إلى عصر ابن القيم أغلبُ الثقافات الإسلامية الدينية والكلامية والفلسفية ، وعرف كلٌّ ما بذله رجال العلم في هذه الميادين ، وظهرتِ الخلافات كأشد ما تكون ؛ ولذا دعت هذه الخلافات بين المذاهب طائفة من المفكّرين – وعلى رأسهم ابن القيم – إلى أن يدرسوا هذه المذاهب المختلفة ، وهذه الفرق المتباينة ، وأن يأخذوا من بينها الصحيح الموافق للكتاب والسنة الصحيحة الثابتة ؛ لأن الأصل الذي تقاس به الأشياء ويعرف به صحتها هو الوحي المنزَّل[4] .

فمنهجية ابن القيم القائمة على الانتخاب لم تكن مجرد نقل للمذاهب والآراء دون نقد أو تمحيص ، ولم تكن – أيضاً – مجرَّد تقليد أو استحسان عقلي أو عاطفي ، بل تميزت بالاستقلالية الفكرية في البحث والنقد والاختيار ، وبيان ما اشتملت عليه المذاهب من صحة وفساد ، كل ذلك في ضوء التبعية التامّة للنصّ الشرعيّ والدليل ؛ فالرأي الصحيح المنتخب هو ما تابَعَ الدليلَ يسير معه حيث سار .

---

(١) انظر : مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري – ابن فورك ، تحقيق : دانيال جيمارية (ص ٥١) ، دار المشرق – بيروت .

(٢) انظر : إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (٢٨٥/١) .

(٣) انظر : ابن قيم الجوزية سيرته منهجه وآراؤه في الإلهيات (ص ٤٨ – ٤٩) .

(٤) انظر : ابن القيم المنتخب (ص ٤١ – ٤٣) .

وبواسطة هذا المنهج تسنّى لابن القيم أن يختار من بين المذاهب والمدارس ما يراه صحيحاً موافقاً للكتاب والسنة ، وأن يُبطل من الآراء ما يراه باطلاً مخالفاً للكتاب والسنة ، وقاعدته في الانتخاب: أدلة الكتاب والسنة، ودلالة العقل الصحيح ، وهذا المنهج المتميز يتشابه إلى حد كبير بالمناهج العلمية القائمة اليوم وفي هذا العصر الحديث على الاستقصاء في البحث ، ودراسة الآراء دراسة متقنة قبل نقدها وإبطالها ، ثم الخلوص إلى النتائج الصحيحة من عملية البحث[1] .

يقول ابن القيم بعد أن عرض ودرس ونقد مذهب الجبرية والقدرية :

(وأهل السنة وحزب الرسول وعسكر الإيمان لا مع هؤلاء ، ولا مع هؤلاء ، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، وكلّ حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه ، وهم برآء من باطلهم ، فمذهبهم جمع حق الطوائف بعضه إلى بعض ، والقول به ونصره وموالاة أهله)[2] .

ويقول – أيضاً – مبيناً منهجية الوسط وانتخاب الحق :

(وإذا وازنت بين هذا المذهب – أي أهل السنة – وبين ما عداه من المذاهب وجدته هو المذهب الوسط والصراط المستقيم ، ووجدت المذاهب خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، فقريبٌ منه ، وبعيد ، وبين ذلك)[3].

ويؤكد ابن القيم دائماً الوسطية بعد عرضه للآراء المختلفة المتضاربة ، فبعد عرضه للمذاهب والآراء المختلفة في مسألة الحكمة والأسباب ، ثم نقدها وبيان ما اشتملت عليه من حق وباطل ، وصحة وفساد ، يعرض مذهب أهل السنة ، ويقول :

(ونحن هكذا نقول بحمد الله ومنّه : القولُ الوسط الصواب لنا ... إلخ)[4] .

ومن هذه النصوص يتبيّن منهج ابن القيم السلفي ، وكيف أنه كان واسع الأفق ، شامل النظرة متحرّر الفكر ، لم يحصر نفسه في إطار مذهب معين ، ولم يجارِ فرقةً من الفرق في كل ما ذهبت إليه من آراء ، وإنما كان يتبع الحق أينما وجده ، ويجمع حق الطوائف بعضه إلى بعض ، فيأخذ من كل طائفة الآراء الصحيحة التي يؤيدها الدليل ويدعمها البرهان، وعلى هذا الأساس قام منهجه – رحمه الله – على الانتخاب والوسطية[5].

يقول الدكتور "عوض الله جاد أحمد حجازي" :

(كان ابن القيم منتخباً في آرائه الكلامية والفكرية ، ولم يكن في ذلك متبعاً لمدرسة معينة ، ولا منتمياً إلى مذهب خاص، والحق أن هذا المنهج الذي سلكه ابن القيم في بحثه وتأليفه وهذا المذهب الاختياري الذي اتبعه، منهج قويم سليم ، وعملٌ جديد قام به ابن القيم في عصره ، وهو عملٌ له قيمته وتقديره، فقد كان يسرد جميع الآراء الواردة في المسألة التي يتعرّض لها ، ثم يناقشها ويختار من بينها الراجح في نظره الذي عضده الدليل ، أو يلفق بين عنصريّ مذهبيّن مختلفيّن، وهذا عملٌ قويم ونهجٌ سليم، ولكنه يكفيه فخراً أنه رسم لنا هذا الطريق ، وبيّن هذا المنهج، لنسير على ضوئه ، ونترسّم خطاه ، ونطبّقه على آراء العلماء

---

(١) انظر : ابن القيم المنتخب (ص ٥١) .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٣١٨/١) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٣٢٠/١) .

(٤) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢٠٨/١) .

(٥) انظر : ابن قيم الجوزية سيرته منهجه وآراؤه في الإلهيات (ص ٥١ – ٥٢) .

وحبّذا لو سرنا على هذا المنهج في بيان المذاهب الكلامية والفلسفية ، والتحقيق بينها ، وأخرجنا من بينه مذهباً خاصّاً صحيحاً سليماً من الخطأ تؤيّده الأدلة العقلية ، ولا يتعارض مع الأدلة النقلية ، بل يكون موافقاً للشــرع من جهة وللواقع من جهة أخرى ، إننا لو قمنا بهذا العمل لحققنا أملاً كان يأمله ابن القيم وهدفاً كان يقصد إليه[1] .

(٣) **الموضوعية والإنصاف :**

من أبرز سمات وخصائص ابن القيم المنهجية في البحث والتأليف الموضوعية العلمية ، والإنصافُ والتجرُّد، فقد كان – رحمه الله موضوعيّاً في بحثه ، عادلاً مع خصومه ، يذكر كلام الخصم ولا يبْخَسه حقه ، فيعترف بــالحق الذي عنده ويبيِّن الباطل ويصحّحه ويقوّمه ، وهذا المنهج الصارم المنصف تربّى عليه ابن القيم في مدرسته السلفية وعلى يد معلّمه العظيم شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – ولذلك يقول ابن القيم :

وتَحَلَّ بالإنصافِ أَفْخَرِ حُلَّةٍ *** زِينَتْ بها الأعطافُ والكِتْفَانِ
واجعلْ شِعارَكَ خَشْيَةَ الرحمنِ مَعْ *** نُصْحِ الرسولِ فحبَّذا الأمرانِ[2]

ودلائــل الموضوعية والإنصاف والعدل عند ابن القيم في كتابه "شفاء العليل" أكثرُ من أن تحصر ، بل أزعم أنّ كــتابه هــذا قائمٌ على الموضوعية والإنصاف من مقدّمته حتى خاتمته ، فالإنصافُ منهجية عنده وليست مجرد شعار يرفع ولا يطبق ، وسنرى كيف كان ابن القيم ينصف بعض الطوائف من بعض ، ويَعْدِلُ بينها! فقد كان – رحمه الله – يحقّق الأقوال ، ويمحّص الآراء ، وينقد المذاهب ويناقشها نقاشاً علميّاً هادئاً رصيناً ، وفــي نهايــة مسار بحثه العلمي يكشفُ عن فساد واضطراب هذه الآراء والمذاهب ، أو ما تضمّنته من حق وصواب ، ومع وجود الخصومة بين ابن القيم وبين هذه المذاهب البدعية إلا أنه لا يهضمهم حقهم ، فإذا وجد معهــم شــيئاً مــن الحــق لم يدفعه ويردّه مكابرة ، بل يقبله ويؤيدهم عليه ويناصرهم مِنْ أجل ما معهم من الصواب والحق ، وهذا بكل تأكيد منهجه الذي لا يحيد عنه .

يقــول ابــن القــيم بعد أن عرض آراء الجبرية والقدرية وناقشها ومحّصها ونقدها وبيّن حقيقة هذه المذاهب والآراء في القضاء والقدر :

وأربــاب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب وبعضهم أقرب إلى الصواب ، وبعضهم أقرب إلى الخطــأ ، وأدلــة كلٍّ منهم وحججه إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى ، لا على إبطال ما أصابوا فيه فكل دليل صحيح للجبرية إنما يدل على إثبات قدرة الرب تعالى وكل دليل صحيح يقيمه القدرية إنما يــدل على أن أفعال العباد فعل لهم قائم بهم واقع بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم وأهل السنة وحزب الرسول وعســكر الإيمــان لا مع هؤلاء ، ولا مع هؤلاء ، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه ، وهم برآء من باطلهم ، فمذهبهم جمع حق الطوائــف بعضــه إلى بعض ، والقول به ونصره وموالاة أهله من ذلك الوجه ، ونَفْيُ باطل كل طائفة من

(١) ابن القيم المنتخب (ص ٢٠٢ – ٢٠٣) .
(٢) شرح القصيدة النونية – هراس (٥١/١) .

الطوائف وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه ، فهم حكام بين الطوائف لا يتحيّزون إلى فئة منهم على الإطلاق ، ولا يردون حق طائفة من الطوائف ، ولا يقابلون بدعة ببدعة ، ولا يردون باطلاً بباطل ، ولا يحملهم شنآن قوم يعادونهم ويكفّرونهم على أن لا يعدلوا فيهم ، بل يقولون فيهم الحق ، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل ، والله سبحانه وتعالى أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف فقال : ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم﴾ فأمره سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه ، وأن يستقيم في نفسه كما أمره ، وأن لا يتبع هوى أحد من الفرق ، وأن يؤمن بالحق جميعه ، لا يؤمن ببعضه دون بعض ، وأن يعدل بين أرباب المقالات والديانات ، وأنت إذا تأملت هذه الآية وجدت أهل الكلام الباطل وأهل الأهواء والبدع من جميع الطوائف أبخص الناس منها حظّاً وأقلهم نصيباً ، ووجدت حزب الله ورسوله وأنصار سنته هم أحق بها وأهلها ، وهم في هذه المسألة وغيرها من المسائل أسعد بالحق من جميع الطوائف[1]

فهذا النص مع طوله يدل دلالة ظاهرة وجلية على منهجية ابن القيم البحثية القائمة على الموضوعية والإنصاف والعدالة ؛ فهذه الطوائف مع كونها من خصوم ابن القيم ومنهجه وعقيدته ، إلا أنّ هذه الخصومة والعداوة لم تقف أمام موضوعيته وإنصافه ، ولذلك اعترف بأن لدى هذه الطوائف حق وباطل ، وأن بعضهم أقرب من بعض إلى الحق والصواب ، وأن حججهم وأدلتهم فيها الصحيح والخطأ ، ومنهج ابن القيم هو أخذ الحق أينما كان ، ومع من يكون ؛ ولذا فهو يوافق خصومه ويناصرهم ويواليهم بمقدار ما معهم من الحق والصواب ، ولا تحاز ضد أحد منهم ، ولا يرد حقهم لأجل الخصومة ، ولا تحمله عدواتهم له على أن يظلمهم ولا يعدل فيهم ، بل منهجه الثابت قول الحق فيهم وفي نفسه ، والحكم بالعدل بينهم ، وهذا هو حقيقة العدل والإنصاف والموضوعية .

ولذلك نجد ابن القيم – رحمه الله – كثيراً ما ينصف خصومه ويعدل فيهم ، ويعترف – دون أن يحمله أو يجبره أحد على ذلك – بما عندهم من الحق والصواب ؛ فعند مسألة "الطبع والختم" عرض رأي المعتزلة وناقشه ونقده بكل موضوعية وإنصاف ، ثم قال :

"لعمر الله إن الذي قاله هؤلاءِ حقُّه أكثَرُ من باطله ، وصحيحُهُ أكثَرُ من سقيمه ، ولكنْ لم يوفوه حقه ، وعظّموا الله من جهة وأخلّوا بتعظيمه من جهة ، فعظّموه بتنزيهه عن الظلم وخلاف الحكمة ، وأخلوا بتعظيمه من جهة التوحيد وكمال القدرة ونفوذ المشيئة ، والقرآن يدل على صحة ما قالوه في الران والطبع والخَتم من وجهٍ ، وعلى بطلانه من وجه"[2] .

فابن القيم هنا بعد أن عرض وناقش رأي المعتزلة ، بيّن بكل موضوعية ، أن رأيهم فيه من الحق والصحة ما يغلب الباطل والفساد ، وهذا الحكم منه على خصومه عدل وإنصاف ، ثم يبيّن ابن القيم نقطة جوهرية في منهجه وهي : أن أساس الحكم على الآراء ، وأساس العدل والإنصاف والموضوعية هو في القرآن والسنة ؛

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٣١٧/١ – ٣١٩) .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٤٥٤/٢) .

فالأحكام تؤخذ منهما ، والأشياء والآراء تقاس بهما ، فهما أساس الحكم والعدل والإنصاف ، وليس للعاطفة والأهواء والميول دور في ذلك .

وفي مثال تطبيقي رائع نَجِدُ فيه سِمَةَ الموضوعية والإنصاف تتجلّى عند ابن القيم ؛ فعند عقده مناظرة بين جبري وسني ، يستعرض حجج الجبرية بكل أمانة ، وفي أثناء البحث والحوار يستعرض بعض الحوارات بين القدرية والجبرية ، فينصف أحدهما من الآخر ، وهذا ما حصل فعلاً بين الرازي الأشعري[1] ، وأبو الحسين البصري المعتزلي[2] في مسألة "**وجوب الفعل مع الداعي**" .

يقول ابن القيم :

وقد سلّم أبو الحسين أن الفعل يجب مع الداعي ، وسلّم أن الداعي مخلوق لله ، وقال : إنّ العبد مستقل بإيجاد فعله ، قال : والعلم بذلك ضروري ، قال ابن الخطيب – أي الرازي – : "وهذا غلو منه في القدر ، وقوله أنه يتوقف على الداعي ، والداعي خلق لله ، غلوٌ في الجبر ، فجمع بين القدر والجبر مع غلوه فيهما" . ولم ينصفه ؛ فليس ما ذهب إليه غلوّاً في قدر ولا جبر ؛ فإنّ توقّفَ الفعلِ على الداعي ووجوبَهُ عنده بقدرة العبد ليس جبراً فضلاً أن يكون غلوّاً فيه ، وكون العبد محدثاً لفعله ضرورة بما خلقه الله فيه من القدرة والاختيار ليس قولاً بمذهب القدرية فضلاً عن كونه غلوّاً فيه[3] .

فهنا نرى كيف أنصف ابن القيم الرجل المعتزلي مما اتهمه به العالم الأشعري ؛ فالرازيّ اتهم البصري المعتزلي بأنه وقع في تناقض صارخ حيث جمع بين الحرية والجبر مع غلوه فيهما ، وابن القيم يستدرك حكم الرازي بالنقد والتمحيص ، فيبيّن أنه ظلَمَ المعتزلي ولم ينصفه ، والصواب أنّ ما ذهب إليه البصري ليس جبراً ولا قولاً بمذهب القدرية فضلاً عن كونه غلوّاً فيهما ، بل قوله أقرب للصواب وأقرب للحق ، وإنصافُ ابن القيم هذا وعدلُهُ وموضوعيته لم تكنْ مع أحد أنصاره ضِدَّ أحد خصومه ، بل الجبريةُ والقدرية كلهم خصومه، ومع ذلك أنصفهم جميعاً وعدل فيهم ، وقال فيهم بالعدل ، بل أنصَفَ بعضهم من بعض .

ونختم بهذا النص الذي تتجلّى فيه سمة الموضوعية والإنصاف عند ابن القيم ؛ حيث يقول بعد أن عرض آراء الجبرية والقدرية واستوفَى أدلتهما ، نقداً وتمحيصاً ، ثم عرَضَ بعض آراء القدرية :

نعم هذا حَقٌّ ، ولكنْ ليس فيه إخراج السبب عن كونه مقدوراً للرب تعالى واقعاً بمشيئته ، ولو شاء لحال بين العبد وبينه ووفّقه لضده ؛ فهذه البقية التي بَقِيَتْ عليك من القدر ؛ كما أن إنكارَ إثبات الأسباب واقتضائها لمسبّباتها وترتبها عليها هي البقية التي بقيت على الجبري في المسألة أيضاً ، فكلاكما مصيب من وجه مخطئ من وجه ، ولو تخلّص كل منكما من البقية التي بقيت عليه لوجدتما روح الوفاق ، واصطلحتما على الحق ، وبالله التوفيق[4] .

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي ، التيمي ، البكري ، أبو عبدالله المشهور بالفخر الرازي ، ويقال له : ابن خطيب الري ، متكلم ، مفسر ، وأحد فقهاء الشافعية المشاهير ، ولد سنة (٥٤٤هـ) بالري ، له مؤلفات كثيرة جداً من أشهرها : مفاتيح الغيب ، المطالب العالية ، المباحث المشرقية ، المحصول في أصول الفقه ، الأربعين ، المحصل وغيرها كثير . [illegible] في حياته على منهج أهل الكلام ، وقد اعترف في آخر حياته بفساد الطرق الكلامية وأنها لا تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، كما اعترف أيضاً بأن أقرب الطرق للحق هي طريقة القرآن الكريم ، مات سنة (٦٠٦هـ) بمدينة هراة وله من العمر ما يقارب بضع وستون سنة . انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/٥٠٠) .

(٢) هو محمد بن علي بن الطيب ، أبو الحسين البصري ، شيخ المعتزلة في وقته ، وصاحب التصانيف الكلامية ، ولد بالبصرة ، وسكن بغداد ، وكان فصيحاً بليغاً عالماً مطلعاً ، له مؤلفات عديدة منها : المعتمد في أصول الفقه ، وكتاب تصفح الأدلة ، مات ببغداد سنة (٤٣٦هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء (١٧/٥٨٧) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٧٩) . وانظر : المطالب العالية (٩/٢٥٨) .

(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧٤٦) .

والأمثلة والنماذج على سمة الموضوعية العلمية ، والإنصاف والعدل عند ابن القيم كثيرة جداً ، وأكتفي بما ذكر هنا[1] .

(٤) البحث عن الحق :

منهج ابن القيم الثابت في أبحاثه ومؤلفاته البحث عن الحق أينما كان ؛ فدليله الحق ، وغايته الحق ، ومقصده الحق ، يقولُ به ، ولا يعدلُ به شيئاً ، ولا يقدم عليه شيخاً ، أو تقليداً أو رأياً ، أو عقلاً ، بل الحق هو المقدَّم وهو الأصل والأساس والغاية .

فمنهج ابن القيم قبول الحق بغض النظر عن قائله ، ورفض الباطل بغض النظر عن قائله ومن يكون ، وهذا المنهج هو منهج يتميز به السلف الصالح ، حيث إن الحق هو طلبتهم ، وإليه يسعون ، ومنه يصدرون .

ومن الأمثلة على منهجيته هذه ما قاله بعد أن عرَضَ أقوال شيخ الإسلام الهروي الأنصاري ، وقد لاح له وظهر أنه قد خالف الحق :

(شيخ الإسلام حبيب إلينا ، والحق أحبُّ إلينا منه ، وكل من عدا المعصوم صلى الله عليه وسلم فمأخوذٌ من قوله ومتروك ، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله ، ثم نبيِّن ما فيه)[2] .

وفي مقدمة كتابه "شفاء العليل" أسَّس هذه السمة المنهجية بكل وضوح ، حيث قال :

(فيا أيها المتأمِّل له – أي الكتاب – الواقف عليه ؛ لك غنمه ، وعلى مؤلِّفه غرمه ، ولك فائدته ، وعليه عائدته ، فلا تَعْجَلْ بإنكر ما لم يتقدَّم لك أسباب معرفته ، ولا يحملنك شنآن مؤلِّفه وأصحابه على أن تُحْرَمَ ما فيه من الفوائد)[3] .

فهنا يؤسِّس ابن القيم منهجه الثابت ويحث عليه ، ويتمثل هذا المنهج في طلب الحق والبحث عنه أينما كان ، ومع من يكون ، فالأصل هو الحق ، وهو المطلوب والغاية والهدف ، وبغض النظر عن قائله من يكون ، هل هو من الخصوم أم الأنصار .

وهذا المنهج الأصيل عند ابن القيم نجد صداه في أبحاثه العملية ، وتطبيقه الميداني ؛ فالمنهج عنده طريق وسلوك عملي ، وليس مجرد شعارات وعناوين ولافتات !!

ولذلك نجده يقول بعد عرضه للمذاهب الكلامية في القدر :

(أرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب ، وبعضهم أقرب إلى الصواب ، وبعضهم أقرب إلى الخطأ ، وأهل السنة وحزب الرسول وعسكر الإيمان لا مع هؤلاء ، ولا مع هؤلاء ، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، وكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه ، وهم برآء من باطلهم ؛ فمذهبهم جَمَعَ حق الطوائف بعضه إلى بعض ، والقول به ونصره ، وموالاة أهله من ذلك الوجه ، ونفي باطل كل طائفة من الطوائف ، وكسره ، ومعاداة أهله من هذا الوجه)[4] .

---

(١) انظر للمزيد : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٩٧/١) (٦١٣/٢ ، ٦٢١ ، ٧٩٠ ، ٧٩٧) .
شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٦٢٧/٢) .

(٢) مدارج السالكين – ابن القيم (٣٨/٢) ، ط/الثانية ، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان ١٤٠٨هـ ، وانظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١٠٠/١ – ١٠٦) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢٥/١ – ٢٦) .

(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٣١٨/١) .

ويقول – رحمه الله – بعد عرضه مذهب القدرية في أفعال العباد :

"قال أهل السنة والعدل : هذا الكلام فيه حق وباطل ، فلا يُقبَلُ مطلقاً ولا يُرَدُّ مطلقاً ، فقولكم : إنَّ الله سبحانه أقدرَ الكافر والشيطان على الطبع والختم كلامٌ باطل ؛ فإنه لم يقدره إلا على التزيين والوسوسة والدعوة إلى الكفـر ، ولـم يقدِرْهُ على خلق ذلك في قلب العبد ألبتة ، وأما ما في هذا الكلام من حق ؛ فهو أن الله سبحانه أقدرَ العبد على الفعل الذي أوجب الطبع والختم على قلبه ، فلو لا إقدار الله له على ذلك لم يفعله"[1] .

وغير تلك الأمثلة والنماذج التي مارس فيها ابن القيم منهجيته الراسخة في البحث عن الحق وتقديمه وطلبه ، وفي موضع في كتابه "شفاء العليل" يلخص منهجه في هذه المسألة ، حيث يقول بعد أن استوفى عرض الآراء في مسألة الحكمة والتعليل :

"ونحـن نـبرأ إلـى الله تعالى من هذه الأقوال وقائلها ، إلا مِنْ حق يتضمَّنه مقالة كل فرقة منهم ؛ فنحن به قائلون ، وإليه منقادون ، وله مذعنون"[2] .

(٥) استفصال أقوال الخصوم :

ومن السمات والخصائص المنهجية الراسخة عند ابن القيم في بحثه للمسائل العلمية : الاستفصال في الأقوال والألفـاظ ، وقد سبَقَ بيان منهجيته في استفصال الألفاظ والمصطلحات ، أما منهجية استفصال الأقوال ؛ فإنَّ ابـن القيم – رحمه الله – حين عَرْضِهِ حجة أو شبهة للقدرية أو للجبرية أو غيرهم ، يعمد قبل الخوض في مناقشـتها ونقدها وتفنيدها إلى استفصال الخصوم عن حقيقة أقوالهم وماذا يريدون بها ؛ لأنه يعلم علماً يقينيّاً أن صحة النقد والتفنيد نتيجة طبيعية لصحة الفهم والاستيعاب ، ولا يكون هناك فهم سليم إلا بعد الاستفصال والتبيُّن من كلام الخصوم ، ومعرفة مقصوده بشكل واضح .

وقد مارس ابن القيم هذه المنهجية في كتابه "شفاء العليل" بفعالية متميزة ، فهو لا يبدأ بمناقشة الأقوال قبل أن يستظهر المراد منها بالاستفصال والبيان ، ومن الأمثلة على منهجية "استفصال أقوال الخصم" في كتابه هذا ، ما يلي :

فعند مناقشته لحجج القدرية في قضية "أفعال العباد" وما يتعلق بها ، أثار هؤلاء بعض الأسئلة والاعتراضات بغـية الإفحـام ، وقبل أن يجيب ابن القيم على هذه الاعتراضات استفصل أقوالهم واعتراضاتهم ، وفي هذا تطبيق عملي لمنهجية الاستفصال .

يقول : "السؤال الذي تورده القدرية ، وهو ما يقولون في الكفر والمعاصي ، هل هي واقعة باختيار الله أم بغير اختـياره ؟ فـإنْ قلتم باختياره فكلُّ مختارٍ مرضيٌّ مصطفى محبوب ، فتكون مرضية محبوبة له ، وإن قلتم بغير اختياره لم يكن بمشيئته واختياره . **وجوابه أن يقال :** ما تعنون بالاختيار ؟ تعنون به الاختيار العام في اصـطلاح المتكلّمـيـن وهـو المشيئة والإرادة ؟ أم تعنون بالاختيار الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العـرب ؟ فإن أردتم بالاختيار الأول فهي واقعة باختياره بهذا الاعتبار ، ولكن لا يجوز أن يطلق ذلك عليها

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٤٦٣) .
(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢٠٨) .

لمـــا في لفظ الاختيار من معنى الاصطفاء والمحبة ، بل يقال : واقعة بمشيئته وقدرته ، وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب فهي غير واقعة باختياره بهذا المعنى وإن كانت واقعة بمشيئته [1] .

ومثال آخر فابن القيم بعد أن عرض أهم وأقوى شبهة للجبري ، قال :

أنــا أستفســرك عما في هذه الحجة من الألفاظ المجملة المشتملة على حق وباطل ، وأبين لك فسادها ، فما تعني بقولك : إنْ كان الفعل عند القدرة والداعي واجباً كان فعل العبد اضطرارياً وهو عين الجبر ؟ أتعني به أنه يكون مع القدرة والداعي بمنزلة حركة المرتعش ؟ أم تعني به أن الفعل عند اجتماع القدرة والداعي يكون لازم الوقــوع بــالقدرة والداعي ؟ فإنْ أردت بكونه اضطرارياً المعنى الأول كذّبتك العقول والفطر والحس والعيان .. إلخ [2] .

وهكــذا يســتمر ابن القيم في استفصال أقوال الجبري واحداً بعد واحد ، حتى إذا بيّنها بشكل صحيح ، وبيّن مراده ، عاد عليها بالنقد والنقض .

ومــثال أخير فعند عرض ابن القيم شبهات نفاة الحكمة والتعليل ، عرض إحدى شبههم ، وقبل أن يجيب عنها طبق منهجيته في الاستفصال .

يقــول : قولك : جميع الأغراض يرجع حاصلها إلى شيئين : تحصيل اللذة ، ودفع الهم والحزن ، أتريد به الغرض الذي يفعل لأجله الحيوان ؟ أو الحكمة التي يفعل الله سبحانه لأجلها ؟ أم تريد به ما هو أعم من ذلك؟ فإن أردت الأول لم يفدك شيئاً ، وإن أردت الثاني أو الثالث كانت دعوى مجردةً لا برهان عليها ، فإن حكمة الــرب تعــالى فوق تحصيل اللذة ودفع الغم والحزن ، فإنه يتعالى عن ذلك ، بل ليس كمثل حكمته شيء .. إلخ [3].

والأمــثلة علـــى منهجية ابن القيم في الاستفصال كثيرة جداً [4] ، وما تقدم فيه الدلالة الجلية على هذه السمة والخصيصة المنهجية .

(٦) العناية بالنص :

ومــن ســمات وخصــائص ابــن القيم المنهجية عنايته بالنصوص الشرعية ، وتقديمه لها على ما سواها ، والاعــتداد بهـــا ، وعدم معارضتها بالعقل والآراء ، وكانت لابن القيم منهجية خاصّة في التعامل مع النص وعرضه حسب درجات صحته ، وقد تقدم بيان ذلك في الفصل السابق .

(٧) العناية بضبط المصطلحات والألفاظ :

ومن خصائص ابن القيم المنهجية – أيضاً – عنايته بضبط الألفاظ والمصطلحات لأنها تمثّل خطورة بالغة ، حيــث هـــي حقيقة أداة البحــث ومفتاح العلم والمعرفة في كل فن وعلم ولذا كانت العناية بها من أبرز خصــائص ابــن القيم المنهجية فهو يقتصر على الألفاظ الشرعية في العقائد وما يتعلق بالدين ، ويستعين باللغــة العربية لمعرفة معنى الألفاظ والمصطلحات ، ثم يستفصل في الألفاظ المجملة ، ولبيان حقيقة المراد

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢١٢) .
(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٧٣ – ٦٧٤) .
(٣) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (١/٣٢٢ – ٣٢٣) .
(٤) للمزيد انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧١٢ – ٧١٤) ، شفاء العليل تحقيق العجلان (١/١٨٦ ، ٢٩٤) .

بمصطلحات النص يستقصي ألفاظه في الروايات حتى يصل إلى حقيقته ، وهكذا يسلك ابن القيم لتحقيق منهجيته في المصطلحات ، وقد مضى الحديث عن الألفاظ في الفصل السابق .

(٨) المصداقية في تصوير آراء الخصم وأدلته :

من منهجية الموضوعية والأمانة في النقل ؛ نبعت منهجية أخرى عند ابن القيم وهي المصداقية والتحري الأمين في تصوير آراء الخصوم وأدلتهم فابن القيم بعلمه الواسع ، وبحثه الحثيث ، قد توغّل في دراسة كل أنواع التفكير نفسه ، حتى ألم بها ، وأتقنها ، وعرف كُل ما أنتجته المذاهب والطوائف ، حتى أصبح حين يتكلم عنها كأنه عالم من علمائها ، ومن المقدّمين فيها ، يدلنا على ذلك تلك الثروة الكبيرة التي تركها من بعده في مؤلفاته المتنوعة ، حيث حشدها بآراء الفرق الإسلامية وغيرها ، وذكر حججهم وآراءهم على ما هي عليه حتى يخيل إليك أنه واحد منهم في المسائل التي تعرض لها ، فهو حين تصوير آراء خصمه يجري على نَفَسه ، ويسير بنفس طريقته ، ويتكلم بلسانه وبألفاظه ، وينقل أدلته وعباراته كما هي حتى إذا استوفى ذلك ، وحقق منهجيته القائمة على أمانة ومصداقية تصوير مذهب الخصوم ، كر مفنداً وناقداً ما يراه من تلك الآراء غيرّ صالحٍ أو باطل ، أو وافق خصمه على ما ذكره من الحق ، كل ذلك وفق معيار الحق والصواب المرتبط بالكتاب والسنة .

ومن تأمل كتابه "شفاء العليل" يجده من أوله إلى آخره شاهداً على ذلك ، فابنُ القيم لا يذكر مقالة إلا نسبها إلى صاحبها باسمه ، وغالباً ما ينص على اسم المصدر أو الكتاب الذي ينقل منه ، ولم أجد له – رحمه الله – في هذا الكتاب نصّاً واحداً نسب فيه قولاً أو مذهباً أو رأياً إلى أحدٍ ثم تبيّن لي [illegible] تجنى في ذلك أو نسب إلى أحد أو مذهب ما ليس فيه .

ومن يستعرض ما كتبه ابن القيم في هذا الكتاب من مواضيع ، مثل : الكسب والجبر ، وأفعال العباد ، والحكمة والتعليل ، والمناظرة بين السني من جهة وبين الجبري والقدري من جهة أخرى ، يقطع بأمانته ومصداقيته في تصوير آراء المذاهب والطوائف المختلفة ، بل وإنصافه وموضوعيته البالغة في نقل تلك الآراء ومن خلال بحثي لهذه المسائل المطروحة في هذا الكتاب ، فقد وجدت أمانة ابن القيم ومصداقيته عالية وكبيرة ، حيث إني لم أعثر على رأيٍ أو قولٍ تجنى في نسبته إلى أحد ، أو نسب لطائفة ما لم تقله ، بل وجدت ما كتبه عنهم هو حقيقة مذهبهم ، وكتبُهم ومراجعُهم الأصلية ناطقةٌ به شاهدةٌ عليه ، وقد حرصتُ كثيراً على توثيقِ ذلك في الهامش في كل موضعٍ خاصٍّ .

والأمثلة على مصداقية ابن القيم كثيرة جدّاً ، ومنها :

ما نسبه ابن القيم إلى شيخ المعتزلة الجبائي[1] ، عند حديثه عن حديث "احتجاج آدم وموسى عليهما السلام" حيث قال :

---

(١) هو : أبو علي محمد بن عبدالوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان الجبائي ، شيخ المعتزلة ، وإليه تنسب فرقة الجبائية ، ولد سنة (٢٣٥هـ) أخذ عن الشحام أحد كبار رجالات المعتزلة ، وأخذ عنه ابنه أبو هاشم ، وأبو الحسن الأشعري ثم خالفه وعارضه وناظره ، له مصنفات كثيرة منها : الأصول ، النهى عن المنكر ، التعديل والتجوير وغيرها ، توفي بالبصرة سنة (٣٠٣هـ) .

انظر :

طبقات المعتزلة – أحمد بن يحي بن المرتضى ، تحقيق : سوسنه ديفلد فلزر (ص ٨٠ – ٨٥) ، ط/الثانية ، دار المنتظر ، بيروت – لبنان ١٤٠٩هـ .

سير أعلام النبلاء (١٤/١٨٣ – ١٨٤) .

وقــد رد هذا الحديث مَنْ لم يفهمه من المعتزلة كأبي علي الجُبّائي ومن وافقه على ذلك[1] ، وقال : لو صح لبطلــت نبوات الأنبياء فإن القدر إذا كان حجة للعاصي بطل الأمر والنهي فإن العاصي بترك الأمر ، أو فعل النهي ، إذا صحت له الحجة بالقدر السابق ارتفعَ اللوم عنه[2] .

وعــند الرجوع إلى مصادر المعتزلة نجد أن ابن القيم – رحمه الله – لم ينسب إليه ما لم يقله ، بل نسب إليه ما قاله تماماً[3] ، وفي ذلك دلالة قوية على مدى أمانة ابن القيم ومصداقيته في تصوير الآراء ونسبتها .

مثال آخر ما عرضه ابن القيم من حجج وآراء تعبّر عن رأي الجبرية في باب "في ذكر مناظرة جرت بين جـبري وسني جمعهما مجلس مذاكرة"[4] نجده – رحمه الله – كان أميناً في تصويره لهذه الحجج والآراء ، حتى إنه كان ينقل بألفاظها ، ويختار أقوى تلك الحجج ليفندها ويبيّن خطأها وانحرافها[5] .

مــثال أخــير مــا ذكره ابن القيم من أدلة وآراء في باب "في استيفاء شبه النافين للحكمة والتعليل وذكر الأجوبة عنها"[6] حيث قال :

فــنقول مــا قاله أفضل متأخّريهم محمد بن عمر الرازي : كل من فعل فعلاً لأجل تحصيل مصلحة أو لدفع مفسدة .. إلخ[7] .

فهــنا نجد أن أمانة ومصداقية ابن القيم – رحمه الله – حتّمت عليه أن يصوّر رأي النفاة عن طريق عرض رأي أقواهم وأفضلهم حجةً وبياناً ، كي يكون التصوير أميناً وموضوعيّاً ، وبالرجوع إلى مصادر الرازي[8] نجـد دقــة وأمانة ومصداقية ابن القيم في تصوير الآراء ونقل الأقوال ، كل ذلك يؤكد التزامه –رحمه الله– منهجية الصدق في نسبة الآراء وتصوير المذاهب والطوائف ، وعرض الأدلة والحجج .

(٩) المناظرة والحوار :

من السمات المنهجية البارزة في كتاب "شفاء العليل" الحوار والمناظرة فالحوار من الخصائص البحثية التي اهتم بها ابن القيم ومارسها بفعلية وموضوعية للوصول إلى الحق مع المخالفين لعقيدة أهل السنة والجماعة في القضاء والقدر .

---

(١) يقول الدكتور أحمد بن صالح الصمعاني محقق شفاء العليل :
لم أعثر على قول الجبائي في رد هذا الحديث فيما رجعت إليه من كتب المعتزلة .
انظر : الهامش الخامس (٩١/١) من كتاب شفاء العليل ، من تحقيقه .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٩١/١) .

(٣) انظر : طبقات المعتزلة – أحمد المرتضى (ص ٨١) .
أقول : قد نقلت ما قاله الجبائي في حديث الاحتجاج كاملاً في الباب الخامس ، الفصل الثاني ، المبحث الثاني ، المطلب الأول ، فليراجع هناك .

(٤) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٧٠/٢ – ٧١٠) .

(٥) أقول : قارن بين ما ذكره ابن القيم من حجج وآراء على لسان الجبري ، وبين ما ذكره الإمام فخر الدين الرازي من حجج وآراء لتأييد الجبر أو ما يسمى بالكسب عند الأشاعرة، لتعلم مقدار التطابق بينها .
انظر :
المطالب العالية من العلم الإلهي – فخر الدين الرازي ، تحقيق : د. أحمد حجازي السَّقا (١٩/٩ – ٢٤٥) ، ط/ الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ١٤٠٧هـ .

(٦) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢٩٣/١ – ٥٤٦) .

(٧) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢٩٣/١) .

(٨) انظر : المطالب العالية (٣١٧/٣ وما بعدها) و (١٣٧/٤ وما بعدها) .

والمناظرة في اللغة : من النظر أو من النظر بالبصيرة ، واصطلاحاً هي : النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب[1] .

"**فالمـــناظرة**" يكون الغرض منها الوصول إلى الحق والصواب في الموضوع الذي اختلفت أنظار المتناقشين فيه ، أما "**الجدل**" فيكون الغرض منه إلزام الخصم ، والتغلب عليه في مقام الاستدلال ، وخلافهما ونقيضهما "**المكابــرة**" التـــي لا يكون الغرض منها إلزام الخصم بالدليل ، ولا الوصول للحق ، بل غرضها الشهرة أو مجرد اللجاجة[2] .

وهـــذا يعنـــي أن المـــناظرة تقوم بين اثنين متخاصمين ، أي أن ملطب أحدهما خلاف مطلب بالآخر ، وهذا المعنى يتضمن الخلاف ، بل ويجعله شرطاً لقيام المناظرة ، والمناظرة الغرض منها – كما تقدم – الوصول إلـــى الحـــق والصواب ، وهذا لا يعني أن تخلو من إلزام الخصم وتغليطه إذ أن الصواب لا يكون مع كلا المتناظرين بل يُفترَضُ أن يكون مع أحدهما دون الآخر ، ومن يتأمل ما كتبه ابن القيم في كتابه يعلم أن هدفه من المناظرة هو التوصُّل للحق وبيانه بكل أدب وصدق وموضوعية .

وفـــي مقـــابل المناظرة نجد أن ابن القيم – رحمه الله – استخدم الحوار في مجال عرض الأفكار وفي مجال الاخـــتلاف ، ومن هنا يُبرز ابن القيم الحوار الذاتي الذي يقيمه الباحث مع نفسه من أجل إعطاء فكرته صفة الوضـــوح التي تتمثل في النفاذ إلى كل جانب من جوانب الفكرة أو القضية حتى يوضحها ، ولا يدع مجالاً للاســـتفهام أو الغموض حولها[3] ، ولذلك نجد ابن القيم أقام حواراً مع نفسه مَثَّلَ فيه دور العالم السني الذي حاور وناظر علماء الجبرية والقدرية ، وقد قام بكل مصداقية بتصوير آراء المخالف كما هي ومن مصادرها المعـــتمدة ، ثم عاد عليها بالنقد عن طريق الحوار الثنائي غالباً ، كل ذلك من أجل أن تتضح فكرته ، ويقيم الأدلة عليها ، وبأسلوب شيق وممتع ، بعيداً عن الملل والكتابة التقليدية ، وفي هذا الأسلوب الحواري اهتداء بأساليب القرآن الكريم في عرض الحق وتأييده .

والسلف – رضي الله عنهم – يحبذون في الأصل عدم الخوض مع أهل الأهواء والبدع في جدال أو حوار ، لأن في ذلك نشر وإعلان لعقائدهم الفاسدة .

قـــالوا : (مـــن الســـنة تـــرك الرأي والقياس في الدين ، وترك الجدال والخصومات ، وترك مفاتحة القدرية وأصحاب الكلام ، وترك النظر في كتب الكلام وكتب النجوم ، فهذه السنة التي اجتمعت عليها الأئمة)[4] .

لكن أئمة أهل السنة[5] إذا رأو أن المصلحة الشرعية تقتضي مناظرة أهل البدع ومجادلتهم ، فإنهم يقومون بها علـــى أتـــم وجـــه ، نصـــرة للحق ، وإقامة للحجة على المبتدعة ، وبياناً للمنهج الصحيح ، وصداً لعدوان

---

(١) انظر : التعريفات – الجرجاني (ص ٢٤٣) .

(٢) انظر : تاريخ الجدل – الإمام محمد أبو زهرة (ص ٥) ، ط/الأولى ، دار الفكر العربي ١٩٣٤م .

(٣) انظر : حقيقة الخلاف بين المتكلمين – د. علي عبدالفتاح المغربي (ص ٢٤ – ٢٧) ، ط/الأولى ، مكتبة وهبة – مصر ١٤١٥هـ .

(٤) الحجـــة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة – الإمام الحافظ أبي القاسم إسماعيل ابن محمد الأصبهاني ، تحقيق : محمد بن ربيع بن هادي المدخلي (٢٣٦/١) ، ط/الأولى ، دار الرّاية – الرياض ١٤١١هـ .

(٥) من هؤلاء : الإمام أبو سعيد الدارمي الذي تناظر مع المبتدع بشر المريسي ، وكذلك الإمام يعقوب بن إبراهيم الأنصاري المشهور بأبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة ، قد تناظر مـــع بشر المريسي ، وتناظر الإمام أحمد بن حنبل مع قضاة المعتزلة وعلى رأسهم أحمد بن أبي دؤاد ، وتناظر الإمام عبدالعزيز المكي الكناني مع بشر المريسي ، وتناظر الإمام أبو بكر بن خزيمة مع بعض المعطلة الجهمية ، وتناظر الحافظ ابن قدامة المقدسي مع بعض الأشاعرة في صفة الكلام وغيرهم من الأئمة كثير ، رحمهم الله ورضي عنهم .

المبطليــن، مع مراعاة أن تكون هذه المناظرات بعيدة عن عامة الناس ، الذين قد تفسدهم الشبهات والأهواء الضالة[1] .

والمناظرة كأسلوب حواري يُتوصل به إلى معرفة الحق وكشف الباطل تندرج في الجانب التحليلي في منهج ابــن القيم – والمدرسة السلفية بشكل عام – فالحوار والمناظرة كمنهج يمثل نزعة تحليلية قائمة على الحوار بين ابن القيم ومدرسته وبين المخالفين ، وتلك النزعة التحليلية تتميز بالدقة في اختيار الألفاظ وتحديد معناها المــراد ، والوضــوح فــي مناقشة الحجة ، وفي الترجيح بين الرأيين ، فلم يلجأ ابن القيم إلى "**مبدأ الرفض المطلــق**" لــرأي المخالفين له ، ولا إلى "**مبدأ القبول المطلق**" للرأي الموالي لمنهجه ، بل كان ينظر في هذا وفــي ذاك ، فمــا كــان منه حقاً قبله ومدح صاحبه ، وما كان منه باطلاً نبه إليه وحذر منه ، وهذا المنهج التحليلي الذي مارسه السلف قد بلغ درجة النضج والكمال على يد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، لأن أصحاب القرون الأولى المفضلة من السلف إذا كانوا قد فضلوا السكوت عن محاورة الخصم وجداله إلا بالنص في النفي والإثبات ، فإن ابن تيمية وابن القيم قد خاضا المعركة مع المخالفين بالتسلح بالنظرة التحليلية المنهجية ، التي تكشف عن مساوىء المخالف وتبيّن حقيقة ما عنده من مصطلحات ومعقولات لا تنهض إلى مستوى الدليل ، وهذا ما ميز منهجية الحوار عند ابن تيمية وتلميذه ابن القيم[2] .

والحــوار والمناظرة سمة بارزة في كتاب "شفاء العليل" وفي معظم أبوابه ، وقد خص ابن القيم هذه المنهجية ببابين مستقلين وهما :

الباب التاسع عشر : (في ذكر مناظرة جرت بين جبري وسني جمعهما مجلس مذاكرة)[3] .

الباب العشرون : (في ذكر مناظرة بين قدري وسني)[4] .

وفي هاتين المناظرتين مارس ابن القيم بفعلية منهجه التحليلي ، وموضوعيته العلمية ، فكان صادقاً أميناً في تصوير آراء وأقوال المخالفين ، صادقاً ومخلصاً في طلب الحق ، متميزاً في عرضه ونقده ، بارعاً في إدارة الحــوار الثنائي بين المتحاورين المختلفين ، منصفاً بينهما ، عادلاً فيهما ، وهذه المزايا الدقيقة عند ابن القيم فــي مــناظراته ، جعلــتها محــل احــترام العلماء والباحثين ، ولذلك أشادوا بها ونقلوها وجعلوها أنموذجاً للمناظرات الإسلامية الفريدة[5] .

(١٠) الاعتداد بالنفس والاستقلال الفكري :

عــرف ابن القيم – رحمه الله – بأنه كان رجلاً عالي الهمة ، وواسع الإطلاع ، صاحب ذكاء حاد ، وأريحية كــريمة ، كمــا كــان سريع الخاطر ، حاضر البديهة وصاحب شخصية فذة ، ومهابة عظيمة ، لدى أقرانه

---

(١) انظر : تعريف الخلف بمنهج السلف (ص ٢١٠ – ٢١٨) . وانظر أيضاً :
جامع بيان العلم وفضله – الإمام ابن عبدالبر القرطبي ، عناية : عبدالكريم الخطيب (ص ٤٢٢ وما بعدها) ، دار زمزم – الرياض ، السعودية .

(٢) انظر : منهج السلف بين العقل والتقليد – د. محمد السيد الجليند (ص ٦٤ – ٧٦) ، مطبعة العمرانية – القاهرة ١٤١٥هـ .

(٣) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٧٠/٢ – ٧١٠) .

(٤) انظر : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٧١٢/٢ – ٨٠١) .

(٥) انظر :
- تاريخ المذاهب الإسلامية – محمد أبو زهرة (ص ١٠٦ – ١١٨) ، دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٩٦م .
- العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها – د. محمد عبدالستار نصار (١٥٢/١ – ١٥٩) ، ط/ الأولى ، دار الهدى للطباعة – القاهرة ١٤٠٣هـ .
- تاريخ الجدل (ص ١٨٣ – ١٩٥) .

ومعاصريه ، معتداً بنفسه ، مستقلاً بشخصيته[١] ، باحثاً قوي الشخصية لا يتأثر بغيره ، بل كان حراً يُعمل فكره، ولا يلتزم برأي غيره ، ولو كان شيخه ابن تيمية ، فكثيراً ما كان يناقشه ويرد رأيه عندما يبدو له وجه الترجيح بالدليل ، وكان مع اعتداده بنفسه يتناول المخالف له بالحجة والبرهان في هدوء واتزان وثقة بالنفس مرجعها موافقة الشرع في الأقوال والأفعال[٢] .

والاعتداد بالنفس والتحرر في مؤلفات ابن القيم من التبعية لمذهب أو رأي معين يخالف الكتاب والسنة ظاهر وجليّ ، وهذا ما يؤكد تمسكه وتبعيته العلمية بالدليل ، ودعوته إلى الاحتكام إليه دون غيره ، ولم يقبل من الآراء إلا ما اقتنع به ووافق الشرع[٣] .

وقد دعا ابن القيم إلى التحرر الفكري ، وعدم الجمود ، ولتحقيق غرضه حارب التقليد ، ودعا إلى الاجتهاد ، وقد راعه ما شهده من انصراف الناس في عصره عن الكتاب والسنة ، وحرصهم على التقليد ، ومتابعة آراء الشيوخ ، فهب في وجه المقلدين داعياً إلى تحرير العقول من ربقة التقليد ، والتمسك بالكتاب والسنة ، والاهتداء بالدليل ، دون تعظيم الآراء وأصحابها ، وتقديمها على الشرع ، ولذلك كان منهجه هو الاجتهاد والبراءة من التقليد الأعمى[٤] .

يقول ابن القيم : (اجتهدت في جمع هذا الكتاب وتهذيبه وتحريره وتقريبه ، فجاء فرداً في معناه ، بديعاً في مغزاه .. فيا أيها المتأمل له الواقف عليه ، لك غنمه ، وعلى مؤلفه غرمه ، ولك فائدته ، وعليه عائدته ، فلا تعجل بإنكار ما لم يتقدم لك أسباب معرفته ، ولا يحملنك شنآن مؤلفه وأصحابه على أن تُحرم ما فيه من الفوائد التي لعلك لا تظفر بها في كتابه ، ولعل أكثر من تعظمه ماتوا بحسرتها ، ولم يصلوا إلى معرفتها ، والله يقسم فضله بين خلقه بعلمه وحكمته وهو العليم الحكيم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[٥] .

(١١) اهتمامه بالواقع :

ومن سمات وخصائص ابن القيم المنهجية الاهتمام بالواقع ، وتأثره بصدا العقائد والأفكار ، فهو – رحمه الله– أثناء دراسته للأفكار والآراء يهتم كثيراً بتأثيره على واقع الناس وسلوكهم في الحياة العملية .

ولذلك اعتمد في نقده للعقائد الفاسدة على آثارها المدمرة واقعياً ، فكان مع قوة استحضاره وربطه بين الواقع والفكرة ، بارع في توظيفها والاستشهاد بها .

ومن الأمثلة على هذه المنهجية ما نقله عن رأس الجبرية عند حديثه عن أخطار عقيدة الجبرية ؛ قال :

(كان شيخ هذا المذهب جهم بن صفوان يقف على الجذامى ويشاهد ما هم فيه من البلايا ، ويقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ؟! يعني أنه ليس ثم رحمة في الحقيقة ، وإنما الأمر راجعٌ إلى محض المشيئة الخالية عن الحكمة والرحمة)[٦] .

---

(١) انظر : النفس والروح في الفكر الإنساني وموقف ابن القيم منه – د. يوسف محمود محمد (ص ٥٠) ، ط/الأولى ، دار الحكمة – الدوحة ، قطر ١٤١٤هـ .

(٢) انظر : ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن (ص ٣٤) .

(٣) انظر : ابن تيمية حياته وعصره (ص ٤٣٨) ، ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها (١/١٥٣ – ١٥٤) .

(٤) انظر : ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه (ص ١٠٤ – ١٠٥) ، ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص ٨٣ – ٩٧) .

(٥) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢٠ ، ٢٥ – ٢٦) .

(٦) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (١/٢٧٩) .

(١٢) احترام العقل والعناية به :

احترام ابن القيم للنص الشرعي وتقديمه لا يعني أبداً إهدار قيمة العقل ، بل للعقل عنده وعند المدرسة السلفية مكانـــة عالية رفيعة ، ومن احترامهم له وضعه في موضعه المناسب له دون إفراط أو تفريط ، ولذلك لم ير ابـــن القيم مانعاً من الاعتماد على العقل الصحيح ، لأن ما عُلم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع ألبـــتة ولا يأتـــي بخلافه ، ومما يكشف عن أصالة المنهج السلفي واعتزازه بدور العقل وحسن توظيفهم له ، واهـــتمامهم بـــه ، نظرتهم النقدية والتحليلية للمناهج ، القائمة على التصور العقلي الصحيح النابع من موافقة النقل[1] ، أما رفضهم لتقديم العقل على النقل فإنما هو نابع من رفضهم لمفهوم العقل عند الفلاسفة والمدرسة الكلامـــية ، ولا يعني أبداً أنهم يرفضون العقل أو يردون أحكامه ، لأن العقل الصحيح موافق للنقل الصحيح ولا يتعارضان[2] .

ولذلـــك فـــإن ابن القيم كثيراً ما يؤكد صحة وضرورة الاستدلال بالعقل الصريح إلى جانب النقل الصحيح ، ولذلك وجدته يكثر من الاستشهاد بدلالة العقول ، وبحجية العقل ، ومن تلك النصوص .. ما يلي :

يقـــول ابـــن القـــيم : (فطـــر الله العقلاء على ذم فاعل الإساءة ومدح فاعل الإحسان ، وهذا يدل على أنهم مفطورون على العلم بأنه فاعل)[3] .

ويقـــول : (وكـــيف يصح في عقل سليم : سميع لا سمع له ، بصير لا بصر له ، حي لا حياة له ، أم كيف يصـــح عند ذي عقل : مرئي يرى بالأبصار عياناً لا فوق الرأي ولا تحته ، ولا عن يمينه ولا عن شماله ، ولا خلفه ولا أمامه !!)[4] .

ويقـــول : (مـــن المعلوم بصريح العقل أن من يخلق أكمل ممن لا يخلق .. العقل الصريح يقضي بأن من لا حكمة لفعله ولا غاية يقصدها به أولى بالنقص ممن يفعل لحكمة)[5] .

وأخيراً يقول : (استدل كثيرٌ من العقلاء على النبوة بنفس الشريعة ، واستغنوا بها عن طلب المعجزة ، وهذا من أحسن الاستدلال ، فإن دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أكبر شواهد صدقهم)[6] .

والأمثلة على احترام ابن القيم وتقديره لمكانة العقل كثيرة جداً[7] .

(١٣) الاهتمام بالتأصيل والتقعيد الموافق للشرع :

من السمات المنهجية المهمة عند ابن القيم الاهتمام بالتأصيل والتقعيد الموافق والمستنبط من النص الشرعي ، لأن ابن القيم يعلم أن من أهم أصول الضلال تأصيل ما يخالف الشرع .

---

(١) انظر : منهج السلف بين العقل والتقليد (ص ٧٧) .

(٢) انظر : منهج السلف بين العقل والتقليد (ص ٢٩) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧٢٩) .

(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧٣١) .

(٥) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (١/٣٠٠ و ٣٠٢) .

(٦) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (١/٣٦٧) .

(٧) انظر مثلاً :

شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٦٨٥ ، ٧٣٢ ، ٧٩١) .

شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (١/٢١٩ ، ٢٨٤ – ٢٨٥ ، ٣٠٤ ، ٣٣٨ ، ٣٦٤) .

يقول : (كل من أصل أصلاً لم يؤصله الله ورسوله قاده قسراً إلى رد السنة وتحريفها عن مواضعها ؛ فلذلك لـم يؤصـل حزب الله ورسوله أصلاً غير ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو أصلهم الذي عليه يعولون ، وآخيتهم التي إليها يرجعون)[١] .

ولذلك التزم ابن القيم – رحمه الله – منهجية التأصيل الموافق والمستنبط من النص الشرعي ، ولذلك كثيراً ما يعقب عند كل حديث شريف أو آية كريمة بقوله : "هذه الآية الطاهرة أو هذا الحديث الشريف يتضمن أصولاً عظيمة من أصول الإيمان"[٢] ثم يشرع في استخراجها واستنباطها من دلالة النص .

كما اهتم ابن القيم – أيضاً – بوضع القواعد المستنبطة من الدليل الشرعي أو التي لا تخالفه ، لضبط المسائل العقدية والإيمانية ، وتحريرها من التطويل وسوء الفهم .

ومن الأمثلة التي تدل على ذلك .. ما يلي :

ففي مسألة الاحتجاج بالقدر وما حصل فيها من سوء فهم واختلاف ، يضع ابن القيم قاعدة منهجية ضبط بها مسألة الاحتجاج ، وهذه القاعدة هي قوله :

(نكتة المسألة : أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر ، وإذا كان اللوم واقعاً فالاحتجاج بالقدر باطل)[٣] .

وفـي مسألة إطلاق الأسماء على الله وما يشترك العبد فيها مع الله ، يضع ابن القيم هذه القاعدة : (ما انقسم مسماه إلى مدح وذم لم يجيء اسمه المطلق في الأسماء الحسنى ، كالفاعل ، والعامل ، والصانع ، والمريد ، والمـتكلم ، لانقسـام معانـي هـذه الأسـماء إلى محمود ومذموم ، بخلاف العالم والقادر والحي والسميع والبصيـر)[٤].

وفي مسألة الآلام هل هي شرّ أم خير ، يضع ابن القيم هذه القاعدة التي تفصل في هذه القضية ، وهي قوله : (حلاوة الأسباب في العاجل تعقب المرارة في الآجل ، ومرارتها تعقب الحلاوة .. وقد اقتضت حكمته سبحانه أن جعل اللذات تثمر الآلام ، والآلام تثمر اللذات)[٥] .

فـالآلام إذن ليست شراً بل جسراً للخير ، ويكون الخير مرجعه إلى الآلام وأسبابها ، وهكذا يمضي ابن القيم في تعقيد القواعد الموافقة للشرع لضبط مسائل الخلاف ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى[٦] .

(١٤) أسلوب السؤال والجواب :

ومـن سمات وخصائص ابن القيم المنهجية استخدام أسلوب السؤال والجواب ، وهو أسلوب شيق وعلمي ، يحـدد المسـألة ، ثم يحدد الإجابة عليها ، بأسلوب ممتع وسهل ، وابن القيم أكثر من استخدام هذه المنهجية

---

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٩٤/١) .
(٢) انظر مثلاً :
شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١١٤/١) .
شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢٠٤/١) ، (٦٩١/٢) .
(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١١١/١) .
(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٤٦/٢) .
(٥) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٥٤٨/٢) .
(٦) انظر :
شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٥٦٤/٢ ، ٦٢٩ ، ٧٠٤) .
شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٢٠٨/١ ، ٣٣٤) (٤٦١/٢ ، ٦٩١) .

لعلمه بفائدتها ونفعها للقاريء والمستمع ، ولذلك كان – رحمه الله – في بداية أي مسألة يصدرها بسؤال ، كما أنــه إذا ظــن أن هذه المسألة التي سوف يتحدث عنها مهمة ودقيقة نبه ذهن القاريء إليها بسؤال مثير كي يستجلب ويستغرق عقله فيها وفي متابعة الجواب عنها ، وأمثلة هذه المنهجية كثيرة جداً في كتابه "شفاء العليل"[1] .

(١٥) أسلوب التقابل في العرض والرد :

ومــن خصائص ابن القيم المنهجية استخدام أسلوب التقابل والتضاد في العرض والرد ، وهو الأسلوب القائم على ذكر الطوائف والفرق التي تتقابل مع بعضها تقابل تضاد ، فحين عرضه لآراء الجبرية يقابلها بنقيضها وضدها القدرية ، وحين عرضه لأدلة القدرية يقابلها بضدها أدلة الجبرية ، وهكذا يسير في منهج القائم على التقابل في العرض والرد .

وقد لخص ابن القيم هذه المنهج بقوله :

وإذا هم حملوا عليك فلا تكن *** فزعاً لحملتهم ولا بجبان

وأشغلهم عند الجدال ببعضهم *** بعضاً فذاك الحزم للفرسان[2]

وهــنا يبيّــن منهجيته في التقابل والتضاد ، حيث يقول : إن هؤلاء الخصوم وإن كانوا صفاً واحداً على أهل الحق ، فإنهم في حقيقة أمرهم يتنازعون فيما بينهم ، والمنهجية العلمية تقضي بأن يستفاد من هذا النزاع لبيان الحــق ، وبــأن يُصــرف الخصوم عن مضادة الحق إلى الاشتغال ببعضهم البعض ، فيستفيد الحق من ذلك بمعرفة فساد مقالتهم جميعاً ، وطعنهم في أصول بعضهم ، فمن ذلك يتبيّن الصواب وتتكشف حقيقة الباطل .

يقول ابن القيم بعد أن عرض أدلة الجبرية والقدرية :

(وأدلة كل منهم وحججه إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى ، لا على إبطال ما أصابوا فيه)[3] .

ويقول ابن القيم : (فأدلة الجبرية متظافرة صحيحة على من نفى قدرة الرب تعالى على كل شيء من الأعيان والأفعــال ، ونفــى عمــوم مشيئته وخلقه لكل موجود ، وأثبت في الوجود شيئاً بدون مشيئته وخلقه ، وأدلة القدريــة متظافرة صحيحة على من نفى فعل العبد وقدرته ومشيئته واختياره ، وقال : إنه ليس بفاعل شيئاً ، والله يعاقبه على ما لم يفعله ولا له قدرة عليه ، بل هو مضطر إليه مجبور عليه)[4] .

ويقــول – أيضــاً – مبيّــناً منهجيته بعد عرضه لآراء الجبرية والقدرية وأدلتهم : (غاية ما عندكم وعندهم المعارضــة وبيان كل منكم تناقض الآخر ، وهذا لا يفيد نصرة الحق وإبطال الباطل ، بل يفيد بيان خطأكم وخطأهم ، وعدولكم وإياهم عن منهج الصواب)[5] .

---

(١) انظر مثلاً :

شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٢١٢ ، ٤٣٣) ، (٢/٥٤٣ ، ٥٦٧ ، ٦٣٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٣ ، ٦٨٦ ، ٧٧٣ ، ٧٩٢ ، ٨٠٠) .

شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (١/١٨٤ ، ٢٠٠ ، ٢٥٠ ، ٢٩٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠) ، (٢/٥٧٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨) .

(٢) شرح القصيدة النونية – هراس (١/٥٠) .

(٣) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٣١٧ – ٣١٨) .

(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (١/٣١٨) .

(٥) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٢/٧٩٠) .

وقد طبّق ابن القيم منهجية "التقابل والتضاد" بفعالية كبيرة في كتابه هذا ، ومن الأمثلة على ذلك :

فعند عرضه لشبهة الجبرية في أفعال العباد ، أجاب عنها بعرض رد القدرية عليها ، حيث قال : (قال السني: وقد أجابك إخوانك من القدرية عن هذه الحجة .. إلخ)[١] .

وعندما عرض شبهة أخرى للجبري رد عليه بأسلوب التقابل والتضاد ، يقول :

(قال له السني : أخوك القدري يجيبك عن هذا بأن الداعي قد يكون علماً ، وقد يكون اعتقاداً .. إلخ)[٢] .

وبعد ذلك يرد الجبري على الحجة القدرية التي استخدمها ابن القيم كأسلوب تقابل ، وبعدها يدخل القدري في الحوار ويصبح بديلاً عن السني في مواجهة المناظرة ، وهكذا يتقابل القدري مع الجبري وجهاً لوجه ، كل واحد منهما يضاد ويحطم الآخر ، والأمثلة على منهجية التقابل والتضاد في هذا الكتاب عديدة[٣] .

(١٦) الاهتمام بالتجربة والملاحظة والمشاهدات والتأمل :

ومن سمات منهج ابن القيم في أبحاثه العناية بالتجربة والملاحظة ، والاهتمام بالمشاهدات والتأملات العلمية ، فقد كان – رحمه الله – يستعين بالتجارب الخاصة ، والخبرة الشخصية ، والمشاهدات والملاحظات الدقيقة ، والتجربة الحسية في دعم أفكاره ، وتأييد آرائه ، فيسجل ما يشاهده وما يتأمله في هذه الطبيعة ، وما يخوضه من تجارب خاصة وخبرات عملية ، كأسلوب منهجي لدعم فكرته والتدليل عليها .

ومن أدلة ابن القيم الحس وشهادته على الأشياء ، ولذلك يكثر استدلاله به ، ومن ذلك قوله : (دل العقل والشرع والحس على أن العبد فاعل لفعله)[٤] .

ويُعد ابن القيم إنكار المحسوسات والمشاهدات من جحد الضروريات ؛ يقول :

(منكروا الأسباب يزعمون أن لا حرارة في النار تحرق بها ، ولا رطوبة في الماء يروي بها ، وليس في الأجسام أصلاً قوى ، ولا طبائع ، ولافي العالم شيء يكون سبباً لشيء آخر ألبتة ، وإن لم تكن هذه الأمور جحداً للضروريات فليس في العالم من جحد الضروريات)[٥] .

كما أن ابن القيم استدل بالتأمل على إثبات الخالق الحكيم سبحانه ، يقول :

(فإذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد ، فيه جميع عتاده ، فالسماء سقفه ، والأرض بساطه ، والنجوم زينته ، والشمس سراجه .. وذلك أدل دليل على وحدانية خالقه وعلمه وحكمته وقدرته)[٦] .

ويقول : (فيعلم من استقراء العالم وأحواله انتهاؤه إلى عالم واحد ، وقادر واحد ، وحكيم واحد ، قد أتقن نظامه أحسن الإتقان)[٧] .

---

(١) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٧٦/٢) .

(٢) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٨٠/٢) .

(٣) انظر للمزيد : شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٦٨٣/٢ ، ٧١٢ ، ٧١٤ ، ٧٢٨ ، ٧٩٠) .

(٤) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٧٠٨/٢) .

(٥) شفاء العليل ، تحقيق : الصمعاني (٧٣١/٢) .

(٦) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٣٩٦/١) .

(٧) شفاء العليل ، تحقيق : العجلان (٣٩٤/١) .